عيسى ميخائيل سابا

قصة

الأديان القديمة

ومذاهبها الفكرية عند الاغريق

منشورات مجلة
« الرسالة المخلصية »

مقدمة

بسم الله خير الاسماء

امّا بعد فهذا كتاب يجمع بين دفتيه الفكرة البشرية الدينية منذ انبثاقها من الحقيقة الازلية، ووجودها في هذا الكوكب الارضي الذي مشى باحوال متباينة، من غمرٍ الى جمادٍ فرواسٍ واودية وسهول وغابات، وحشرات وحيوانات على اختلاف انواعها، وقد عملت بها يد الطبيعة بقوة المبدع الخلاق، فكانت هذه التي ندعوها ارضاً. وقام الانسان على عمارتها فقسمها امارات ودويلات وممالك وجعل حواجز، وفرّق الشعوب بعضها عن بعضٍ، وصنّف نفسه اجناساً والواناً، فقال بالجنس الابيض والاصفر والنحاسي والاسود، ونسب الى كل اقليم اسطورة ابتدعها خياله، يبرر بها الالوان، ليجعل ميزة تفوّق بين لون ولون، غير ملتفت الى الاقليم واثره وفعله في الاحياء. فاصبح ذلك الابداع الخيالي وهماً، وترقى الوهم فصار عقيدة ثم ديناً، وتفرّع الدين مذاهب ضفرت حولها تعاليم وآراء، وكلها من عمل الوهم الذي صار حقيقة مقدّسة عند الانسان البدائي وما بعده.

وهذا ما يدعو الى القول: إنّ الانسان لم يعش في حقبة من الزمن بدون عقيدة يقدسها ويفزع اليها، وهذا ما يثبت لنا ان الحقيقة الازلية المحتجبة وراء الابد، لم تترك خلقها من دون ايحاء، فقد يكون ذلك الوهم الذي تخيله الانسان فيه شيء من الوحي، الى أن قَرُبَ ملءُ الزمن الذي اراد به الله ان يتجلى للانسان فارسل رسله وانبياءه يهدون سواء السبيل

ويرشدون الى صراط مستقيم ، ليشعر الانسان بفردوسه الارضي وسعادته ، ولكنّ الطمع وحبّ السيطرة والسيادة ، فرّق وباعد بين الناس ولما يزل الانسان في بؤسه وحيرته . وهاءنذا في كتابي هذا أعرض الى ذكر تلك المذاهب القديمة ، فاذكر المذهب على الوجه الذي ذكره العلماء بدون تعليق او مقابلة ، تاركاً التفكير والبحث الى القارىء ، والقصد من عملي هذا هو التعريف لا غير وعرض ما كان في الازمنة الغابرة ، وتطور الفكرة الانسانية عبر الاجيال .

وقد اعتمدت في البحث والتقميش عن هذه المذاهب ما وقع لي من المصادر العربية والانكليزية والفرنسية . وقد ذكر فيها اصحابها ما وقفوا عليه من ابحاث العلماء والمنقبين في الآثار ، واخذوا انفسهم بدراسته ، تنويراً للاذهان واعلاناً لقدرة العزة الالهية في خلقها ، واني لاثبت اسماء المصادر التي اعتمدتها في اول هذا الكتاب ، وناقل الكفر ليس بكافر ، والعصمة لله وحده وهو حسبي ونِعم الوكيل وله الحمد اولاً وآخراً .

بيروت

عيسى ميخائيل سابا

المصادر

العربية

الكتاب المقدس : العهد العتيق ، طبعة الآباء اليسوعيين

الشهرستاني : الملل والنحل ، طبعة لايبسك

المقتطف المجلد الثاني والسبعون والرابع والستون — مصر

العلم والعمران ، مطبعة المقتطف ، مصر

هنري لامنس : تسريح الابصار فيما يحتوي لبنان من الاثار ج ١ المطبعة الكاثوليكية بيروت

جايمس هنري برستد : العصور القديمة ، ترجمة داود قربان ، المطبعة الاميركانية بيروت

فيليب فانس مير : التاريخ العام ، المطبعة الاميركية بيروت

هارفي بورتر : التاريخ القديم ، المطبعة الاميركية بيروت

نوفل افندي نوفل : صناجة الطرب في تقدمات العرب ، المطبعة الاميركية بيروت

نوفل افندي نوفل : سوسنة سليمان في اصول العقائد والاديان المطبعة الاميركية بيروت

الانكليزية

Wilkinson, Sir G. : Ancient Egyptians.

Brugsch Bey, H. : Egypt under the Pharaons.

Rawlinson, G. : History of Ancient Egypt.

Rawlinson, G : Five Great Monarchies of the Ancient Eastern World.

Kenrich, J. : Phœnicia.

Rev. William g. Blaikie D. D. Bible History.

S. E. Frost Ph. D. : The Sacred Writings of the World's Great Religions.

Margarite E. J. Taylor : Greek Philosophy and Introduction.

E. S. Frost Ph. D. : Basic Teaching of the great Philosophers.

G. E. Joad : The Meaning of Life.

James Harvy Robinson, and James Henry Breasted : A general History of Europe.

الفرنسية

Champollion le Jeune : L'Egypte sous les Pharaons.

Oppert J. : Histoire des Empires de Chaldée et d'Assyrie d'après les monuments.

Rev. P. Jules Sonben : Nouvelle Théologie Dogmatique
I : Dieu dans l'histoire et la révélation.

E. Durand : Histoire de la Philosophie

Clément Huart : La Perse Antique et la civilisation Iranienne.

كيف وجدت الحياة ونشأت العبادة

وجدت الحياة ووجد الانسان ، ولا يعنينا من امر وجود الحياة ووجود الحيوان ، البحث كيف وجدا ، لأن ذلك أمر شاق صعب ، ضربت دونه اعناق كبار الفلاسفة والمفكرين ، ولا بد لنا من الاعتراف والاقرار بوجود خالق مبدع ، ولا يمكن عقل بشري مهما بلغ من حدة الذهن وتوقده ان يتفلسف ويبني تعاليمه على الظن والحدس وكلاهما باطل . ومشكل الحياة والحيوان من المشاكل التي تكسرت أمامها العقول الناضجة ، وليس لعقل مهما سما وعلا ان يبرهن عن وجودهما ألا ان يصدع مقراً بوجود خالق قدير مدبر عاقل متصرف بخلقه ، له الارادة المطلقة ، والفعل التام ، لا يعتريه نقص ، وهو واجب الوجود ، وما كان واجب الوجود فهو دائم الوجود ، وما كان دائم الوجود فهو ازلي ، فلا يجوز ان يتوهم شيء من انواع الموجودات لم يتوافر عليه لانه هو الذي فاض به واعطاه ، وما دونه فهو من الوجود في أعلى رتبة ، ووجودات سائر الاشياء ناقصة عنه ومستفادة منه

ولا يجوز البحث عن كيفية وجوده ، لأنه كما قلنا ، واجب الوجود ، وبدون الاقرار به والاعتراف بقدرته يقطع كل بحث ، وكل قول بدونه باطل ، فهو الخالق وهو المبدع وهو الذي

اوجد الاشياء كلها من لا شيء ، والسؤال عن كيفية هذا الايجاد باطل لا جواب عليه ، لأن ابداع الموجود من موجود يفقد معنى الابداع ، اذ الموجود موجود قبل الابداع ، والابداع يصح في الموجود اذا كان لا من موجود اعني العدم

ولكي نمضي في بحثنا ، علينا ان نعترف بامر من اثنين : اما ان نقر بوجود الله الخالق المبدع وهو امر واجب لا مفر لنا منه ، وانه خلق كل شيء بحكمته وقدرته . واما ان نقول وجدت الحياة ووجد مطلق الحيوان وما الى ذلك من الموجودات بدون ان نسأل من أوجد وكيف ؟

والعقيدة بوجود خالق مبدع مدبر حكيم اصح وأثبت ، لأن مرد الامور كلها اليه سبحانه

وما يعنينا من هذا كله هو أمران : الحياة ، والحيوان الناطق الذي هو الانسان بجملته

ما هي الحياة وكيف وُجدت ؟

ذهب الفلاسفة والمفكرون بامر الحياة مذاهب شتى ، وقالوا عنها اقوالاً لا تخرج عن الغرض والظن ، ولم يتمكن احد من أن يعرّفها تعريفاً صحيحاً جامعاً مانعاً . ومن تلك التعاريف :

الحياة هي مجموع خلايا تتفاعل تفاعلاً كيماوياً وطبيعياً ، فكل الاحياء من ادناها الى اعلاها ، من الجراثيم الى الانسان نفسه مبنية من جواهر هذه المادة العجيبة ، وهي « البروتوبلازم » الملازم للحياة ، ففي « البروتوبلازم » تظهر الافعال التي يمتاز بها الاحياء حتى ان صفاتنا التي نمتاز بها عن الاحياء الاخرى قائمة في بناء « البروتوبلازم » الكيماوي الطبيعي [١]

(١) المقتطف ، المجلد الثاني والسبعون ، ص ٣٢

ولكن هذا « البروتوبلازم » لم يحدد لنا الحياة ، ولم يعرفنا ما هي وكيف تترقرق في الجسم الحي ؟

ان الجواب عن ذلك مستعص ، لم يتمكن احد بعد من تحديده وتعريفه تعريفاً علمياً صحيحاً ، وكل ما قيل فيه ظن وافتراض . على ان « اديصن » العالم الطبيعي الاميركي ، والمخترع الكهربائي يعتقد : ان القوة التي نسميها حياة ، تستطيع أن تقطع المسافات الشاسعة بسرعة الكهربائية ، وتستطيع ان تحيي ما على الارض ، ثم تعود الى مصدرها في الكون ، وهو اما سيار او جهة مجهولة لا نعلمها ؛ « فان الارض في سالف عهدها ، كانت غير صالحة لوجود الاحياء فيها ، حينما كانت مصهورة من شدة الحمو ، ثم بردت وظهرت الاحياء فيها فتولدت حياتها في الارض ، او اتتها من مكان آخر ، وعندي أنها اتت من مكان آخر كما تأتي الكهربائية من الشمس ; ولا اعني بذلك أنها اتت كما تأتي الكهربائية تماماً لانني لا اعلم كيف اتت » [٢]

وقال الاستاذ « شيفر » رئيس مجمع تقدم العلوم البريطاني في تعريف الحياة ما يأتي : كل يعلم او يظن انه يعلم ما هي الحياة ؟ او يعرف على الاقل مظاهرها العادية الواضحة ، فلذلك قد يتبادر الى الذهن ، أنه لا يعسر تعريف الحياة تعريفاً صحيحاً ، على ان تعريفها قد حير اكبر عقول المفكرين ، فخص « هربرت سبنسر » فصلين في مؤلفه مبادىء « البيولوجيا » بالبحث في التعريفات التي اقترحت الى ذلك الحين ، واقترح تعريفاً آخر ، ولكنه اضطر اخيراً في نهاية الامر ، ان يعترف بانه لم يجد تعريفاً يشمل كل ما هو معلوم من مظاهر الاجسام الحية [٣]

(٢) المقتطف ، المجلد الرابع والستون ، ص ٥٠٠

(٣) العلم والعمران ، مطبعة المقتطف مصر ص ١٢٨

واذا نحن ملنا الى كتب اللغة ، رأيناها تعرّف الحياة بانها قوة فاعلة في الاجسام الحية المتحركة . وهو تعريف كلا تعريف .

واما الاستـــاذ « داستر » فقد سار في خطة « كلود برنار » فعرّفها بانها : مجموع الظواهر المشتركة بين الاحياء ، وعندي ان تعريفاً كهذا هو من قبيل تفسير الماء بالماء

وقال الاستاذ « جود » ما معناه : إن احداً من العلماء لم يوضح لنا جلياً ما هي الحياة ؟ ومـا هو هذا الشيء الذي يحركني ويدفع بي الى التفكير ؟ وتنقطع فيّ كل حركة عند النوم ، ثم استيقظ والحياة ملءُ جوانحي »[٤] . ويفهم من قول « داروِن » أن الحياة هبطت من السماوات العلى ، ويزعم السر « وليم طمسن » المعروف باللورد « كلفن » انها وصلت الينا من بعض الاجرام محمولة على بعض النيازك[٥]

وقال « فيلكس لا دانتك » البيولوجي الشهير في الحياة اقوالاً شتى ، وبين فعل الخلايا وعملها ، ولكنه لم يحدد لنا بكلمة او كلمات معنى الحياة ومصدرها

ونرى جماعة يقولون : ان الحياة نقيض الموت وهي القوة النامية في النبات والحيوان ، ولكن ما هي هذه القوة النامية ؟

هذا ما يجب ان نعرفه ، والبحث فيه يوقعنا في مشاكل جمة ، ويقودنا الى البحث في علم الحياة « البيولوجي » والدخول فى مدارجها يحتاج الى مجلدات

وفي كتب الفلاسفة الاقدمين يقولون : ان النفس هي التي تولد الحياة في البدن ، واذا كانت حياة البدن في النفس وجب ان تكون الحياة للنفس اولاً وللبدن ثانياً ، والنفس ليست صورة الحياة

(4) The Meaning of Life P. 2 — 6

(٥) النيازك : حجارة تشبه زبر الحديد تسقط من النجوم وتعرف بالرجم

بعينها ، وقولهم هذا يدعونا الى بحث النفس ، وليس هو غرضنا في هذا المقال ، ولكي نقطع البحث نلجأ الى الكتاب المقدس حيث نرى فيه « ان الرب الاله جبل الانسان تراباً من الارض ونفخ في انفه حياة ، فصار الانسان نفساً حية »[٦] ويقودنا هذا البحث الى شيءٍ آخر وهو الانسان

مَن هو الانسان ؟

هو هذا الحيوان الناطق الذي يولد وينمو ويموت ، وهو الذي يسير على الارض يستنطقها خيراتها مفكراً بانتاج ما يحتاج اليه حفظاً لكيانه ووجوده . وهو الذي يفكر ويقول ويتحكم بكل محسوس بواسطة عقله . فمتى وُجد على هذه الغبراء ؟

لم يعرف العلماء وكبار البحثة متى وُجد الانسان في هذا الكوكب المسمى بلغتنا « الارض » ولا يعلمون شيئاً عن الانسان الاول الا ما جاء في كتب الوحي المقدسة

الا انهم يعرفون بعض الشيء بطريق الحدس من آثاره التي تركها في المغاور ، وحفظتها الطبيعة كالعظام والجماجم والنقوش والادوات الحجرية التي كان يستعين بها على قضاء حاجاته ، ومن مجرى علم التاريخ المدون بدليل المكتشفات الاثرية ، نرى ان الانسان مشى في عصور ثلاثة اولها :

١ — العصر الحجري : ويسبق هذا العصر ، او الزمن ، زمن قبل التاريخ ، وقد مضت على الانسان الوف مؤلفة من السنين قبل ان اخذ يدون افكاره واعماله وما حدث له . واما العصر الحجري فهو العصر الذي اخذ الانسان يصنع فيه ادواته من

(٦) الكتاب المقدس سفر التكوين ٢ : ٧ طبعة الآباء اليسوعيين بيروت

الحجر ، ولا سيما الصوان ، وهذه الادوات التي وجدت في المحصبات والكهوف هي اقدم ما صنعته يد

وقد شاهد انسان ذلك العصر ركام الجليد الباقي من العصر الجليدي السابق على ما اثبته علماء « الجيولوجيا » (علم طبقات الارض) . وقالوا : انه عايش البهائم التي عاصرته كالفيل المنقرض المعروف « بالماموث » والفرس الوحشي والايل . ويقص علينا علماء التاريخ ، ان انسان العصر الحجري الاول ، كان قانصاً صياداً ، يقنص حيوان البر ويصيد سمك البحر ، وكانت مساكنه الكهوف ومحاجىء الصخور ، والغالب في ادواته كانت صوانية خشنة ، ولم يحدثنا احد عن مدى هذا العصر ، والادوار الجيولوجية تخبرنا ان الانسان في مدى ذلك الزمن المتطاول ، كان يتقدم نحو الحضارة تقدماً يدلنا على ما في الانسان من عقل وتفكير ، وقد عرف النار وقدسها ، واخترع القوس والسهم ونسبه الى الآلهة ، وذلك بدليل ما ترك لنا من الآثار التي ما اكتشف انسان اليوم منها الا اقلها

٢ — العصر الحجري الحديث : وقد ولي العصر الحجري القديم ، وظلت فيه الادوات الحجرية المشظاة تستعمل ثم تدرج بها الانسان الى استعمال الادوات المصقولة ، وفيه اي في ذلك الزمن اخذ يتعلم الفلاحة والزراعة وقد استنبطهما من النظر الى الارض ، وعرف صناعة الخزف والغزل والحياكة ، وذلل من الوحوش آكلة العشب كثيراً ، فدجنت وشيد البيوت ، وشرع يدفن الموتى جاعلاً معهم المنَح والادوات التي كانوا يستعملونها وهم في قيد الحياة ، وهذا ما يدلنا على بدء الايمان بالحياة الثانية بعد القبر (٧)

(7) A General History of Europe P. I — 9

ومما هو جدير بالذكر هنا ، قول العالم « جولي » ان للنار اليد الطولى في اختراع كل فن تقريباً ، فقد عجلت الاختراع وانجحت العيلة والدين والصناعة ، وتظهر لنا بهذه الكلمات الثلاث : الموقد ، والمذبح ، والكور

وانه ليصعب علينا جداً ، ان نتصور انتقال الانسان القديم من العصر الحجري الى غيره ، من دون النار

ويقودنا البحث الى النظر في الدور الثالث وهو دور تحضر الانسان

٣ — العصر النحاسي او تحضر الانسان: وفيه عرف بناء البيوت وتطريق الحديد وصناعة الخزف ، وتطرق بعد ذلك الى العبادة وقد قاده اليها تفكيره وملاحظاته

منشأ العبادة

وجد الانسان نفسه في كوكب عجيب غريب ، تنيره شمس نهاراً وقمر ليلاً ، وتتنوع فصوله بين شتاء وربيع وصيف وخريف ، نهار يندغم في الليل فتظلم الارض ، وما يلبث ان يندغم الليل في النهار ، فتسطع الشمس مبددة ظلمة الليل الرهيب

هذه جبال ، وهذه اودية ، وهذه بحار وهذه انهار ، وتتبدل فصول الطبيعة فتسبب رعوداً وبروقاً وأمطاراً تتساقط ثم لا تلبث ان تنقطع ، فترتدي الارض حلة خضراء مشرقة

رأى الانسان هذه المظاهر كلها ، فاعمل الفكر بعد أن انتقل من حياته الوحشية الى حياة العيلة فالقبيلة ، وأخذ العقل يبحث ويستقري فقال : من انا ؟ ، من اين ؟ ، والى اين ؟

وهنا اخذ الفكر في امتداده ، يبحث ويتأمل ، فرأى الأ

بد له من الالتجاء الى قوة من القوى الغير المدركة ، فتعبد لها واخذ في استرضائهـــا لأنها اقوى منه ، وهي التي تدر عليه الخيرات ، او تقطع عنه الامداد ، فكانت عبادة الشمس نهاراً والقمر ليلاً ، والنجوم ، والصواعق والبروق ، والفصول الاربعة ، وكان الى جانب هذا عبادات أنشأها الوهم او الخوف ، وبطول الزمن اصبحت حقائق عند معتقديها بحسب التربية والتعليم. فكانت المعارف الانسانية اكتسابية ، صادرة عن الحواس ، وكان حكمه بها على قدر تعرفه بهـا . فكان يرى في كل قوة من قوى الطبيعة آلهة قاهرة ، وارواحاً ساحرة ، فيستدعي في حركاته وسكناته ، ارواح الاشجار وقوات الجبال ، والانهر ونفوس الكواكب ، وفي كل ذلك ما كان يستدعي غير خياله واوهامه وهي لا تضر ولا تنفع (٨)

وهذا ما يدعونا الى القول المنسوب الى شيشرون : « اي قبيلة لم يكن لها قبل كل علم ، سابق معرفة بالالوهية » او كما قال « بلوتارك » : « تستطيع ان تجد مدناً بلا أسوار ولا شرائع ولا معاملة بالسكة ولا آداب لغة ، بيد انك لن تلقى مدينة بلا اله ولا صلوات ولا طقوس دينية ولا ذبيحة تكفيرية »

وقال ارسطو مـا ملخصه : ان تقليداً قديماً انتشر عن آبائنا الأولين بين البشر طراً ، يفيدنا بأن كل شيء صدر عن الله وبالله . وكل طبيعة تقوم وتحفظ بعون الله . وهو وان كانت لا تراه الخليقة المائتة يرى باعماله ، ويعرف من مبروءاته ، وهو واحد ولكن له اسماء عديدة متأتية عن اختلاف افعاله البادية في الكون . فهو والحالة هذه مبدأ ومرجع كل موجود . ينهج

---

(٨) باختصار عن Nouvelle Théologie Dogmatique
Dieu dans l'histoire et la révélation P. 3 — 11

لكلٍّ الطريق المستقيمة المؤدية اليه ، ويقتص من المتعسفين عنها بعدله الذي يقضي ان يقتدي به كل من يرغب في سعادة المستقبل ويروم ان يكون سعيداً (٩) .

---

(٩) كتاب العالم ٦ بالاعتماد على كتاب النجوى – شلحت ص ٢٧ المطبعة الادبية بيروت سنة ١٩٠٣

ديانة المصريين القدماء

إنَّ الفضل في معرفة دين المصريين القدماء يرجع الى اكتشاف سر الكتابة « الهيروغليف » التي ازاح النقاب عنها « فرانسوا شمبوليون » الفرنسي في فك رموزها . فعرفنا ممـــا قرأه العلماء اصحاب الاختصاص أن أقدم كتبهم « كتاب الموتى » وفيه تعليم النفس في سفرها الى الممالـك السفلى حيث يستقر المباركون ، ويشتمل على قصص واحاديث خيالية ، واساطير عن الجان ، وقصة خاصة لتسلية ابن رعمسيس الثاني ومقالات في الطب والفلك وموضوعات علمية متعددة ، وفيها ما يأتي : « انكم ايها اليونان اطفال ثرثارون متكبرون ، لا علم لكم بما مَرَّ من تاريخ العصور القديمة »

عبادتهم

كان للمصريين آلهة متعددة يقسمونها ثلاثات ، ثلاثات وأهمها « اوزوريس » و « ايسس » زوجته واخته و « هورس » وكانت هذه العبادة تشمل البلاد المصرية برمتها ، فرمزوا بالنيل الى « اوزوريس » وهو واهب الحياة ، ويضاف اليه « سيت » شيطان الخرافات المصرية ، واتخذوا اهوال البرية رمزاً له

وعبدوا بهائم رمزوا بها عن الآلهة ، فكل من ذبح حيواناً من تلك الحيوانات المقدسة يدان دينونة آثم شرير ، واقدس

هذه الحيوانات « الخنفساء » في طبقة الحشرات ، لأنها رمز الحياة . ومن اقوالهم : ان روح « اوزوريس » تقمص في جسد احـد العجول ، وتدل عليه رقط وسمات معينة ، فاذا مات ذلك العجل المسمَّى « أبيس » تبادر الكهنة الى تحنيطه بعناية زائدة ، وأنفقوا على جنازته نفقات باهظة ، ودفنوه بالتعظيم والاكرام في قبر سلفه السابق

ومن معتقداتهم : أن أولى احتياجات النفس حصولها على جسدها القديم ، فرغبوا في فَنّ التحنيط رغبة جليلة ، واتقنوه اتقاناً متفوّقاً ، لم يبارهم به احد من الامم . ولما كانوا يرون ان من حاجات النفس هو حفظ جسدها القديم ، شرعوا يضعون مع المحنط في قبره تماثيل من خشب وخزف وذهب على مثال الميت ، ويحفرون على ظاهر التابوت صورة المحنط زاعمين أنه اذا فني الجسد وأتلف ، اعتاضت النفس عنه ، بهذه التماثيل حين رجوعها الى الارض . والنفس عندهم تحتاج الى طعام وشراب ، وما كان يحتاج اليه الميت يوم كان في قيد الحياة ، فيضعون معه أغراضه التي استعملها في حياته

والموت يجمع بين الشريف والدنيء ، العظيم والحقير ، وجميعهم يمثلون امام محكمة « اوزوريس » الرهيبة ليقدم كل منهم حساباً عما فعله ، وهو في الارض حي يرزق ، فتطلب النفس تبريرها بالاعلانات التي يطلق عليها الاعتراف السلبي :

١ — لم أجدّف
٢ — لم أسرق
٣ — لم اقتل احداً خيانة او اغتيالاً
٤ — لم افترِ على احد ولم أشِ بأحد
٥ — لم اشتم ابي ولم أُسيء الى امي

٦ – لم أُتلف قلبي بالحسد

٧ – لم أكذب ولم أخن

ثم تجْهرُ النفس قائلة : بذلت خبزي للجياع وشرابي للعطاش وكسوت العاري وآويت الغريب

ومن الآثار التي اكتشفت ، اتضح أنهم كانوا يعتقدون أن لكل شيء جزءاً من الالوهة يستحق العبادة ، فأجازوا السجود لكل مخلوق ، ولا سيما الحيوانات كالحيات والتماسيح (١)

من تعاليمهم

في البدء وُجد الكائن الذي لا يدرك كنهه ، فانبثق منه « حنوم » خالق العالم وموجد الكائنات كافة من عنصرين احدهما مضيء ورمزه القمر واسمه « إزيس » . وخاصية النفس التقمص في اجسام مختلفة تتجول في العالم بأشكال متعددة حتى تصل الى العالم الثاني حيث تحاكم

آلهتهم

قال الاستاذ « بدج » Budge مترجم كتاب الموتى (٢) وقد عرضنا الى ذكره : كان للمصريين القدماء آلهة متعددة وهذه اهمها:

١ – « آمون » ملك الآلهة ورب الارباب ومقر عبادته طيبة مثل « آمون رع » ورمزه كبش ذو تاج طويل وقرنان طويلان

٢ – « رع » اله الشمس ومعبده مدينة « اون » عين شمس وكان الفرعون يُعتبر أنه متجسد منه وهو ابن الشمس

٣ – « بتاح او فتاح » اله « منف » الاعظم كما كان « آمون »

(١) ملخص عن : Wilkilson : Ancient Egyptians
Brugsch : Egypt under the Pharaohs

(٢) كتاب الموتى للاستاذ « بدج » في جزءين ، طبعة لندن سنة ١٩٠٢

اله طيبة الاعظم وهو الذي ساعده الاله « ختوم » في خلق العالم

٤ – « ختوم » خالق العالم بمساعدة « بتاح » وهو اله جزيرة « إسوان »

٥ – « اوزوريس » اله الآخرة وحامي الموتى ووالد « هورس » قتله اخوه « سخت » وقام من الاموات ودعاه الناس بالاله الصالح ، لانه عمل على خلاصهم من الجهل وعلمهم علوماً كثيرة

٦ – « أزيس » اخت « اوزوريس » وزوجه ، ويرمز اليها برأس صقر احياناً

٧ – « هورس » ابن « اوزوريس » « وايزيس » وهو الذي يكمل الثالوث المقدس « لأبيدوس »

٨ – « خونسو » اله القمر ويرمز اليه بصقر

٩ – « انوبيس » ابن « سخت » و « نفتيس » ويصوّر برأس ابن آوى وهو الذي يقود الموتى الى العالم الأسفل

١٠ – « مُوت » أمُّ الآلهة وزوجة « أمون » ومنها ومن « هوتس » الابن يتألف ثالوث طيبة

١١ – « هانور » الهة الحب ويرمز اليها برأس بقرة

١٢ – « أبيس » عجل « منف » المقدس وهو الذي يمثل تجسد الاله « اوزوريس »

١٣ – « بتاح » او ابيس وهو من اهم معبوداتهم الحيوانية التي تحل فيها روح الآلهة ، وكانوا يبحثون عنه بين عجول البقر وله صفات خاصة ، ومنها سواد جلده ، وصبحة بيضاء مثلثة الشكل في جبهته ، وعلى ظهره شكل نسر ، فاذا عثروا عليه احتفلت البلاد به احتفالاً فائقاً ، وفي يوم موته يحزنون عليه حزناً شديداً ، ولا يزول الحزن الا عندما يظفرون بخليفة له ، ولهذه العجول مقبرة خاصة في « السرابيوم » في سقارة

١٤ – « بس » اله حجرة النوم والاحلام ، وكانوا يصورونه بصورة قزم على رأسه تاج من ريش

١٥ – « جب » او « سب » او « كب » اله الارض القديم وزوج « نوت » ووالد « اوزوريس » الذي خلفه على عرش مصر

١٦ – « نوت » الهة السماء والضوء ، وكانوا يرسمونها على غطاء التوابيت وفي كل يد من يديها ريشة

١٧ – « هابي » اله النهر وتظهر صورته بزهرة على رأسه من من زهر الخندقوقى

١٨ – « حار مخيس » اله الشمس ، وكانوا يرمزون اليه برأس صقر فوق قرص الشمس

١٩ – « مات » او « معت » الهة الحق ، في رأسها ريشة نعامة رمز السرعة

٢٠ – « مين » اله المحصول والانتاج

٢١ – « نيث » الهة الصيد في الوجه البحري

٢٢ – « نفتيس » اخت « أزيس » التي حزنت معها على فقد « اوزوريس » حزناً شديداً ، فرثتاه رثاء مؤثراً وبكيتاه بكاء مراً ، فرقت لهما الآلهة فأقاموه من بين الاموات ونصبوه الهاً عليهم

٢٣ – « سيت » قاتل أخيه « اوزوريس » وكان يعتبره عبّاد « حورس » اله الشر ، ويرمزون اليه برأس غريبة كرأس الحمار . وقيل ان هذا الاله كان يعيش مع اخيه « اوزوريس » الصالح ، ولكن داخله الطمع وأحب أن يستأثر بالملك ، فدبر له مكيدة قتله بها ورماه في نهر النيل ، فانتقم « حورس » ابن « اوزوريس » لابيه من عمه

٢٤ – « تحوت » او « ثوث » خالق العالم بكلمته وهو اله الحكمة الذي يقرر وزن نفس الميت بحضرة « اوزوريس » وكان يعتبر الهاً للقمر ايضاً

٢٥ – « بسطت » او « بستيت » الهة السرور وحرارة الشمس المفرحة ، وكانوا يرمزون اليها بهرة

٢٦ – « سيرابيس » اله مصري عُبِدَ في عهد البطالسة والرومان بدلاً من « اوزوريس » وقد تجسد في العجل « أبيس »

٢٧ – « سبك » اله الماء وكانوا يرمزون اليه بتمساح

٢٨ – « سخمت » إلاهة برأس لبوءة ، وهي الاهة القوات الشريرة والحرارة الزائدة المنبعثة من الشمس

٢٩ – « طوريس » الاهة ولادة الطفل وكانوا يرمزون اليها بفرس الماء ، وصدرها صدر انثى

٣٠ – « ايموس » مكمل ثالوث « منف » المؤلف من « فتاح وسيخت وايموس »

٣١ – « أتمى » الاهة الشريعة وللعدل

٣٢ – « أتون » اله قرص الشمس الذي بشّر به « أمنحتب الرابع » وحاول حمل الشعب على الاقرار بالاله الواحد والتعبد اليه فلم يُفلح . وهنا يتضح لنـــا ان بعض العقول النيرة في العصور الاخيرة من عصور الدول المصرية ، قد انتهت الى ان الآلهة التي تملأ المعابد والمقابر ، لم تكن سوى مظاهر لاله واحد ، عالم بصير حي باق لا شبيه له يحكم في السماوات والارض ولا تدركه العيون

وهذا التوحيد لم يكن سوى مذهب اعتنقه بعض المفكرين وقصروه على انفسهم وفي طليعتهم « امنحتب الرابع » الذي ثارت عليه العامة لانه الزمهم الاقرار بالتوحيد

آراؤهم فيما بعد الموت

كانوا يرون ان الشخص متى مات انفصلت روحه عن بدنه ،

وسعت مهرولة الى حيث تغرب الشمس تحت الارض ، وهنالك تمثل بحضرة اله الاموات « اوزوريس » الجالس في صدر قاعة العدل ، وحوله اثنان واربعون حكماً من الآلهة ، فتتقدم نفس الميت خاشعة ورعة ، فيحاسبونها على ما فرط منها وهي حية ترزق في الارض ، ويطلبون اليها ان تدافع عن نفسها سلباً

فإن قبل القضاة دفاعها ، وظهر لهم أنها كانت طيبة مخلصة ، اطلقوها تطير احقاباً ، فتجتاز محناً وشدائد ، وينتهي امرها الى الحشر في زمرة الآلهة فتقيم في نعيم وراحة . وان هي قصرت في دفاعها واتضح للقضاة إثمها وفجورها قضوا عليها بالعذاب ، فتقضي فيه قروناً ثم تفنى

ومن اعتقاداتهم : ان الروح بعد الموت تعود الى الجسد لتستريح فيه برهة زمنية تتذكر اعمالها قبل المحاكمة

اعمال الكهان

كان من واجب الكهان ان يتعبدوا لكل كوكب من السيّارات السبع مدة معينة ، وليس للملك ان يقوم بعمل من الأعمال بدون مشورتهم ، فهم الذين يضعون القوانين ، ومن واجب رئيس الكهان ان يأتي كل يوم الى قصر الملك فيجتمع به ويحثه على استعمال الفضائل ، ويلعن كل من يصرفه عنها

وكان لهم علوم سحرية خاصة يمارسونها في حفلاتهم ، وشرّ ما كانوا يكرهونه هو رؤية الدم ، والابتعاد عن بعض الحيوانات النجسة ، ولاسيما الخنزير ، ويكرهون ايضاً البحر فلا يمخرون فيه بسفينة ، وكانوا يتجنبون الغرباء فلا يؤاكلونهم ولا يأكلون طعاماً طبخته ايد غريبة او قطع بسكاكين من صنع الغرباء ،

ويحرصون على نظافة اجسادهم ، ولا يعددون الزوجات خلافاً لسواد الناس [٣] . وهنا لا بدّ لنا من ان نختم بما قال المؤرخ « سايس » : « نحن ورثة التمدن الغابر وجزء كبير من ذلك التمدن هو من مبتكرات مصر القديمة » .

---

(٣) ملخص عن : Ancient Egyptians , Egypt under the Pharaohs

الديانة الكلدانية والاشورية والبابلية

كان للكلدانيين آلهة لا تحصى واهمها الثالوث الآتي :

١ – « أنو »

٢ – « بيل »

٣ – « حيا » او « حُوا »

« فانو » هو رب الهاوية ، و « بيل » رب الحرب والصيد ، و « حيا » او « حُوا » رب اليابسة وكانوا يلقبونه باله العلم وقالوا : انه معلم البشر والمرشد الى الفهم والمعرفة

ويأتي بعد هذا الثالوث ، ثالوث ثانٍ هو :

١ – « سين » الاله القمري وعلامته هلال

٢ – « سان » او « سان سي » الاله الشمسي وعلامته دائرة

٣ – « فول » او « ايفا » اله الهواء

والى جانب هذا الثالوث يوجد آلهة اخرى منها :

« تين » ومسكنه زُحل

« بيل مردوخ » ومسكنه المشتري

« نبور » ومسكنه عطارد

وهذه بعض نفوس الكواكب وحرستها ، واما خلقة العالم عندهم فكانت كما اتضح من تعاليمهم المنقوشة على الآجر بالحرف المسماري [1]

(١) يرجع حل رموز تلك الكتابة الصعبة الى نفر من العلماء منهم العالمان : « غروتيفند » والسر « هنري رولنسن »

خلقة العالم

في البدء لم يكن الا ماء وظلام وهناك تولدت أنواع من الوحوش الغريبة والكائنات العجيبة ، فمنها ما يشبه أناساً ذوي اجنحة ووجهين ورأسين ، لبعضها قرنان او اكثر ، ولبعضها أرجل تحكي قوائم فرس ، ويضاف الى ذلك كله حيات وزحافات تختلط بعضها بالبعض الآخر ، ولكل منها خواص الآخر ، وكانت امرأة تتسلط على هذه الكائنات ، فجاء الاله « بيل » بقدرته العظيمة وسلطانه المطلق ، وشق المرأة شطرين ، فجعل من الشطر الأعلى سماءً ومن الشطر الاسفل أرضاً ، واهلك الحيوانات التي فيها جملة واحدة ، وعمد الى الظلام فشقه نصفين ، وفصل بين السماء ورتب العالم بأسره ، وجعل له نظاماً لا يعتريه خلل او نقص ، وأوعز الى احد الآلهة ان يقطع رأسه ليختلط دمه بتراب الارض ، فكان من ذلك الانسان والحيوان معاً

وصنع « بيل » بحكمته الفائقة ، الشمس والقمر والسيارات والكواكب وأقام عليها حراساً ومدبرين

عقيدتهم

كانوا يؤمنون بالارواح ولاسيما الارواح الشريرة ، ويقيمون مراسم العبادة بضرب من السحر والشعوذة مستعملين الرقى والتعاويذ تخلصاً من سلطان الارواح الشريرة وكان لهم هيكل ضم بين جوانبه كثيراً من الآلهة المحلية ، وآلهة الطبيعة ، ولم يكن لهم في عصر من العصور اله فائق . ومن رسومهم الدينية : التنجيم والانباء بالحوادث المستقبلة بواسطة رصد الكواكب ، فأحكموا بذلك علم الفلك حتى ذاع لهم صيت في العالم القديم كله

وذكر الاستاذ « جسترو » في كتابه الديانة البابلية [2] : انه

(٢) الديانة البابلية لجسترو ص ٣٠٣

كان لهم صلوات تشبه بعض الشبه ما نسب الى داود النبي من مزاميره ، هي : « الهي الغاضب عليَّ ، اقبل صلاتي ، لعل خطاياي تغفر ومعاصيَّ تمّحى ، ولعل ميـــاه المجرى تطهرني ، نقني كالذهب المتألق »

الحياة الاخرى

لا ريب انهم لم يعتقدوا اعتقاد المصريين ، كما هو واضح ، بالبعث. بل كانوا يتخيلون ان الحياة بعد الموت من اشد المحزنات التي تبعث على الحزن الشديد فسموا منزل الموتى « ارالو Aralow » اي ارض الظلام التي لا رجوع منها ، وهي عندهم عبارة عن كورة مظلمة تحت الارض حيث تعشش الحشرات والخفافيش ، وعلى اسكفات الابواب الموصدة غبار وأقذار من نسج العناكب ، ولا طعام للنفوس هنالك غير الغبار والوحول

اما منازل الاموات فواحد ، ولا فرق بين عظيم وحقير ، غني وفقير ، فالجميع لدى الموت سواء ، الا ان اصحاب الاعمال العظيمة والتقوى البالغة يقطنون فردوساً فيه ما تشتهي العين وتطرب له الاذن وتطمئن اليه النفوس

دستور حمورابي

اكتشف المنقبون الفرنسيون سنة ١٩٠١ و ١٩٠٢ في « سوسا » احدى مدن عيلام القديمة ، من اعمال بلاد فارس حديثاً ، حجراً مرسوماً عليه مجموع القوانين التي سنها حمورابي ملك بابل في الألف الثالث قبل المسيح وفيه تحديد حقوق الزوج والزوجة ، والسيد والعبد ، والتاجر والبستاني ، والدباغ والراعي وواجباتهم ، ويشمل هذا القانون سكان الامبراطورية كافة ، منه :

١ – العين بالعين والسن بالسن والعضو بالعضو

٢ – اذا نطح ثور انساناً غرم صاحب الثور ، واذا كان يعرف ان ثوره مؤذ ولم ينشر قرنيه غرم غرامة باهظة

٣ – كل من وارى عبداً آبقاً او حماه ، ينزل به عقاب قاس

قد يتبين لنا مما تقدم أنهم كانوا يشعرون بخطاياهم وعدم استحقاقهم لمراحم الآلهة ، فيسترضونها بالذبائح والقرابين واشادة الهياكل العظيمة . وقال احد اساطين الباحثين عن امور اشور : « ان هذا الدستور باعتبار انه اقدم الشرائع التي في الوجود ، يعد عصره من اعظم عصور تاريخ العالم ويجب ان يكون مبدأ الدرس القويم لعلم الفقة التاريخي »

ويؤخذ من المراجع التي اطلعنا عليها ، أنهم كانوا ذوي باع طويل في علم الفلك فقسموا منطقة البروج الى صورها الاثنتي عشرة ، وسموا كواكب تلك المنطقة باسماء ، وقد تنبأوا بكل من الكسوف والخسوف قبل اوانها ، واخترعوا الساعة الشمسية [3] لمعرفة ما يمضي من ساعات النهار ، والساعة المائية لمعرفة ما يمضي من ساعات الليل ، وقسموا السنة اثني عشر شهراً ، وقسموا الليل والنهار ساعات ، والساعات ، دقائق . والاسبوع جعلوه سبعة ايام واستراحوا في اليوم السابع منه وسموه « ساباتو » . واليهم ينسب اختراع الحساب الاثني عشري ، واوجدوا مقاييس الاطوال والاثقال والقوى

ذكر الطوفان

قال الاستاذ « هارفي بورتر » في كتابه « النهج القويم » [4] ما ملخصه : أوحى الى « زستروس » في حلم وأنذر انه في الخامس

(٣) وتعرف بالمزولة

(٤) طبع في بيروت سنة ١٨٨٤ ، المطبعة الاميركية

عشر من شهر « ديسيوس » يهلك الانسان بالطوفان ، وأمر ان يصنع سفينة ويدخلها وعائلته واقرباءه ويشحنها لحماً وشرباً ، ويدخل اليها طيوراً وحيوانات واذا تهيأ كل شيء يقلع ، وأمر في الحلم ان يكتب اخباره واخبـــار العالم القديم في سجلات ويدفنها في مدينة الشمس ففعل ، وصنع فلكاً طوله خمسة فراسخ وعرضه فرسخان ، وادخل اليها كل ما ذكر اعلاه ، وجاء الطوفان ، ولما خف اطلق بعض الطيور فرجعت اذ لم تجد لها مقراً ، وبعد ايام اخرج الطيور ، فرجعت وعلى ارجلها وحل ، ولما ارسلها ثالثة لم ترجع ، فعلم ان اليابسة ظهرت ، فنظر الى خارج الفلك واذا به قد استقر على جبل ، فخرج وقدم ذبيحة للآلهة على مذبح بناه هنالك ، ثم اختفى ، ولما فتشوا عنه ونادوه جاوبهم من الهواء قائلاً : اعبدوا الله ، اني انا عبدته ، واخذني لاسكن مع الآلهة ، ثم امرهم ان يرجعوا الى بلادهم وينبشوا السجلات التي دفنها في مدينة الشمس فامتثلوا امره ، وكانت الارض حينئذ لساناً واحداً ، وطفق الناس يفتخرون بجسومهم وقواهم ويستخفون بالآلهة فبنوا برجاً عالياً جداً ليصعدوا الى العلاء ، ولما قرب البرج من السماء جعل الله الريح تهب فقلبت على الناس وبلبلت السنتهم فدعيت المدينة بابل

بناء الهياكل

كانوا يبنون هياكلهم على هيئة الاهرام ، الا انهم لم يجعلوا جوانبها متساوية المساحة مثل الهرم المصري ، بل جعلوا الوجه كهيئة الدرج ، واعظم مثال لذلك هيكل « بيل » في بابل ، وهيكل « نبو » في برج نمرود وهو ذو ثماني طبقات ، وعروشه مربعة وطول جانب الطبقة السفلى ٢٧٢ قدماً وطول جانب

الثانية ٢٣٠ قدماً وطول جانب الثالثة ١٨٨ قدماً الخ ... فطول جانب الطبقة العليا خمسة عشر قدماً فقط

وكانت الطبقات الثلاث السفلى متساوية العلو ، وعلو كل منها ستة وعشرون قدماً ، وما بقيت منها متساوية كذلك ، وعلو كل منها خمسة عشر قدماً ، وعلو البناء كله مع عروشه ١٥٦ قدماً اي نحو ثمانية وستين ذراعاً . ولم تكن كل هذه الطبقات في وسط مـــا تحتها بل كانت اقرب للجانب الواحد مما للجانب الآخر . وكانت الطبقة العليا والمظنون أنها مزخرفة جداً ، وكان لكل من جوانب الطبقات لون خاص به ، وغاية ذلك الاشارة الى الشمس والقمر والسيارات فقد عينوا لكل منها لوناً

الكهان

ان اسم الكلدانيين لم يطلق الا على طبقة واحدة من البابليين وهي الكهنة ، فلما غلب تعلق العلوم في القديم بالدين أمست تلك الطبقة طبقة العلماء وكانت لغتهم المقدسة غير لغة عامة الناس ، وكانوا يستعملون هذه اللغة ويعدونها سراً من الاسرار ، حفظاً لعقائدهم وفرائضهم وعلومهم . وكان الكهنة يختارون من اولاد العامة ويعلمونهم هذه العلوم السرية ويحلفونهم على كتمانها ، ولهم اعتبار عظيم يقدرهم الملوك ويطيعونهم ، وزعموا ان لهم سلطاناً على القوى الروحية والقوى الطبيعية ، ولهم معرفة بامور المستقبل من حركات النجوم والافلاك

بعض قصصهم الديني

« اتانا » الراعي

قيل : ان « اتانا » الراعي ، رأى ان قطعانه قد منيت

بالعقم ، وتوقفت شياهه عن الولادة ، فامتطى نسراً وحلق به في اعالي الجو ، يبحث عن ضرب من البقول ، زعموا ان الحياة كامنة فيه ، ولما اشرف على بلوغ مرامه ، القى به النسر ارضاً فسقط من شاهق ودق عنقه ومات

« أدابة » الصياد

قيل : ان الصياد « أدابة » ذهب يبحث عن سر الموت الغامض فركب زورقه وراح يمخر عباب الابحر ، فغضبت عليه الالهة « ريح الجنوب » فقلبت زورقه ، فاحتدم غيظاً وكسر جناحها ، فدعي الى ان يمثل امام عرش ملك الجو للمحاكمة ، فلما مثل امامه سكن ثائر غضبه ورضي عنه ، وقدم له خبز الحياة وماءها ، فأبى ان يقبلها لانه اوجس خيفة في نفسه ، فخسر بذلك حياة الخلود ، وخسر معه الجنس البشري نعمة الخلود ايضاً . الا ان بعض الآلهة شفع بالبشر فأنالهم نعمة الخلود ان كانوا اتقياء صالحين

السيطرة الدينية

ان السيطرة كانت بيد جماعة من الكهنة الذين أثروا واغتنوا بكدح يمين العمال والفلاحين واصحاب الصناعة والتجارة ، فالكهنة هم سدنة الهيكل ، يحافظون على الاملاك الموقوفة ويستثمرونها بمعونة رهط من الكتبة

ومن مداخيل الكهنة ايضاً ، الهدايا والاعطيات التي يغدقها عليهم الشعب بكرم ، وكان الملك رئيساً لاولئك الكهنة كما انه كان كاهناً اعظم يقوم بواجبات منصبه الديني كغيره من الكهان

والى الهيكل او ظل التل القائم عليه الهيكل كان يأتي الفلاح حاملاً تقدماته ، وهي عبارة عن رأس من الماعز وجرة ماء فيها بعض سعوف النخل الخضراء ، رمز الحياة النباتية في البلاد التي كان يحفظها الاله بفيضان النهر السنوي . واصبحت الجرة والسعوف رمزاً نجده منقوشاً على الآثار البابلية القديمة ، فكان العابد يضع تقدمته امام آلهة الارض او الهواء او السماء او البحر ، متوسلاً اليها ان تهب له ماء غزيراً وغلالاً وافرة ، على امل ألا يكون الماء طوفاناً مهلكاً يبيد الزرع والضرع (٥) .

---

(٥) لخصنا مـا تقدم عن Histoire des Empires de Chaldée et d'Assyrie d'après les monuments
وعن العصور القديمة لهنري برستد
وعن النهج القويم لبورتر والتاريخ القديم لمير

ديانة الفرس القدماء

زرادشت

حوالي سنة ٦٦٠ ق . م قام رجل فارسي يدعى « زوروواستر » او « زرادشت » والقى نظرة على من حوله من الناس ، فاذا هم في شقاق وتدابر ، فاعمل الفكر متأملًا محاولاً اصلاح قومه ومنع التنابذ بديانة جديدة تناسب ابناء جيله ومن يجيء بعدهم

فكان اول ما تبادر الى ذهنه ، التنازع القائم بين الخير والشر ، فقال في نفسه : لا ريب ان هنالك قوات صالحة تقاومها قوات شريرة تفسد على الصالحة عملها ، وتوهّم أن الخير شخص الهي فسماه « مزدا » او « هرومزدا » ومعناه رب الحكمة ، واطلق عليه اسم الله وقال : ان جحفلًا من الاعوان يطيفون به وهم مراتب الملائكة واعظمهم النور واسمه « متراس »

واما الفئة الشريرة فهي مؤلفة من ارواح رديئة يقودها الشر المسمى « اهريمان »

وسعى « زرادشت » الى نشر فكرته بين قومه داعياً كل شخص ان يختار احد امرين ، فاما ان يملأ نفسه من الصلاح والنور ، او يميل الى الشر والظلام ، ولا بد للمرء من ان يقدم حساباً عما اختار . وحافظ « زرادشت » على احترام النار الآرية القديمة ، وقد رمز بها الى الصلاح والنور ، وثبت الكهنة في اشبابها والعناية بها

وتعاليمه مجموعة في كتاب اسمه « فستا Veasta [1] » وفيه أن قوى الخير والشر ما تزال في حرب دائمة ، ولا بد لـ « مزدا » من ان ينتصر اخيراً ويبدد الشر الى الابد . وقد جمعت الفستا بعد موت صاحبها بألف سنة اي في القرون الوسطى المسيحية

ومن الواجب على كل زرادشتي ان يساعد « مزدا » على « اهريمان » محب الشر ، فيسعى بكل قواه على ازالة الشر والرذيلة من قلبه ، ويصلح الارض ويتعهدها بالعزق والتنقيب لينقذها من الجدب ويجعلها خصبة صالحة للزراعة ، وعليه ان يقتل البهائم والحشرات الضارة كالحيوانات المفترسة ، والحيات والضفادع والورلان وهذه كلها من خلق « اهريمان » . وذكر المؤرخ اليوناني « هيرودتس » أنه رأى كهنة الفرس مسلحين يقتلون تلك البهائم ويعدون ذلك لهواً دينياً . اما خلاصة تعاليمه فتدور كما تقدم على ثنائية الوجود

فما هي هذه الثنائية في الوجود عنده ؟

هي مزيج من عنصرين : الخير والشر ، الفكر والمادة ، الصواب والخطأ ، النور والظلام

وهذان المبدآن المتناقضان ، موجودان منذ الازل ، احدهما صالح ويدعى « مزدا » والآخر طالح ويدعى « اهريمان » . ففي البدء كان « مزدا » مع المعرفة السامية ، والطهارة الفائقة ، مشرقاً بنوره ، فمن كلمته الالهية خلق العالم وما فيه من انسان وحيوان طاهر ، والطاهر القدوس ، الابن الكلمة ، كان موجوداً قبل السماء ، وقبل الكائنات ، وقبل الوجود نفسه . وكل من « مزدا » و « اهريمان » يتقاسمان القوة والقدرة . غير ان « مزدا » يعلم كل

(١) تثبتت الفستا بتعاليمها بعد المسيح حوالي سنة ٢٠٠ م

ما سيحصل قبل وقوعه ، فيعلم بنتائج ما سيفعل ، اما الثاني فلا يعلم بنتائج عمله الا وقت حصوله ، وهذا هو وجه افضلية « مزدا » على « اهريمان » وتغلب الخير على الشر ولو بعد آلاف السنين

وما الحياة الا معركة يتحارب فيها الخير والشر معاً ، ولا بد للخير من ان ينتصر اخيراً ، ولذلك وجب على الانسان ان يكون طاهراً مثل « مزدا » وطهارة الفكر تجعل النفس نيرة مضيئة ، واداتها صدق القول ، والابتعاد عن الكذب

ولا بد للنفس من ان تحاكم بعد الموت فتنال جزاء ما قدمت في الحياة فاما ثواب واما عقاب

وكان من عادات كهنتهم ان يقدموا المسكرات على مذبح اله السكر . يشربون حتى يغيبوا عن الوجدان ، فيهزون بما يتراءى لهم ويعتبرون ما ينطقون به رسالة من عالم الغيب ، فاحترمهم الناس كل الاحترام ، وتسلطوا على الملك الذي كان يستشيرهم بكل عمل من اعماله ، ولا يجسر على انكار شيء من آرائهم

الهياكل والاعياد

لم يكن لهم هياكل قبل « زرادشت » فكانوا يسجدون للشمس والنار على التلال ، او بين الاشجار ، وكان سجودهم للشمس واجباً ، لانها مسكن الاله ، وللنار فلانها تشبه الشمس بالحرارة والنور . وامر « زرادشت » في بناء الهياكل كيلا يمنعهم مزاج الفلك من العبادة في أي فصل من فصول السنة ، وكان المشرق وجهتهم في اقامة الصلوات ثلاث مرات في اليوم ، عند الفجر والعصر والغروب ، وكانت نار الهياكل ان خمدت جددها « منوشهر » الذي ادعى أنه صعد الى السماء وشاهد الله في سحابة لامعة وسمع صوته ، وعاد الى الارض يحمل في يمينه النار المقدسة

التي يجب ان تحفظ على كل مذبح ، وعلى الكهنة حرستها ان يتعهدوها ليل نهار ، فلا يجوز لهم ان ينفخوها بافواههم ، ومن فعل قتل حالاً ، ولا يجوز للكهنة ان يقربوا النار بدون برقع على وجوههم ، لئلا يفسدوها بانفاسهم ، كما انه لا يجوز ان يروحوا عليها بمروحة ، وعليهم ان يستعملوا لاشبابها حطباً نظيفاً مقشوراً من لحائه ، واذا انطفأت تجدد من نار هيكل آخر ، باحتفال بالغ ، تقرع فيه الطبول وينفخ بالابواق منشدين أناشيد ومضات النار المتألقة كالشمس المحيية ام النور وسيدة الارض

واما اعيادهم فهي عيد « النوروز » ومعناه اليوم الجديد ويقع في الاعتدال الربيعي ، و « المهرجان » ومعناه الخريف ، ويقع في الاعتدال الخريفي

شريعة الزواج

وكانوا يتزوجون نساء كثيرات وجواري حسب استطاعتهم ، ولم يسغ للزوجات ان يخرجن من البيوت الا نادراً ، واذا خرجن وجب ان يتبرقعن مستورات ، وكانوا يبذلون ما في وسعهم في تهذيب الصبيان ، فكان الصبي يلازم بيت النساء حتى يبلغ الخامسة من العمر ثم يوكل تهذيبه الى معلم يعلمه الالعاب المختلفة والصيد للتنشيط والرياضة ، ولم يعتدُّوا بتدريس الكتب فكان الغرض من تهذيبهم اعدادهم للحرب والسياسة . والولد يتجند عند بلوغه سن الخامسة عشرة ، ويظل جندياً الى غاية الخمسين من عمره ، وكانوا يدربون اولادهم على الصدق والابتعاد عن الكذب ولهذا قيل : « تجنب الفرس التجارة لانها تحمل صاحبها على الكذب » . فافتخر شرفاؤهم بانهم لا يبيعون ولا يشترون ويعيشون من دخل املاكهم ويتركون ما فضل او يبذلونه في

سبيل الاحسان . واحلت شريعة « زرادشت » ان يتزوج المرء
بنته واخته وامه ، والذي يتزوج بامه يأتي بأولاد مقدسين

الموت

وكانت عادتهم في الموت ان يضعوا اجساد الموتى على سطح
عال مدوّر وفي وسطه بئر عميقة ، فيضعون الميت عارياً على
لوح من حجر ، ويعرضونه للشمس ، والالواح تكون على ثلاثة
صفوف : الخارجي منها للرجال والمتوسط للنساء والداخلي للاولاد ،
وتبقى تلك الرمم تحت حرارة الشمس وهطل الامطار ، مأكلاً
لطير السماء والحشرات الى ان يهتر اللحم فلا يبقى الا العظام ،
فيطرحونها في البئر زاعمين ان الاجسام تتطهر بنور الشمس
وحرارتها ، ومن دنس الخطيئة ، وعندئذ تجوز نفس الميت الى
النعيم مطهرة مقدسة ، والنفس لا تدخل نعيمها ما دام شيء
من اللحم عالقاً بها [٢]

اسطورة

ذكر هيرودتس قال : لم يرزق الملك « أستياجس » ملك مادي
نسلاً من ابنة ملك ليديا فتزوج غيرها ، ورزق ابنة اسماها
« مندانه » زوّجها من كمبيز امير الفرس اذ رأى حلماً ينبئه
ان ابن بنته يعزله فلم يزوجها احد الملوك قصد ان يبطل النبوة ،
وكان الفرس وقتئذ من توابع مادي . ثم رأى حلماً آخر اخافه
فاستدعى ابنته من بيت زوجها ، فولدت ابناً في قصره ، فعمد
الى اهلاكه لكي يبطل الرؤيا ، فدفعه الى رجل من حاشيته
اسمه « هريجس » وامره ان يهلكه ، فاعطاه « هريجس » احد الرعاة

(٢) ملخص عن Five great Monarchies of the Ancient Eastern World. — Bible History و

وامره باهلاكه ، الا ان الراعي اخذه الى بيته ورباه مخفيا
امره ، ولما كبر الولد واسمه « كورش » كشف امره وعلم
الملك بما كان ، فاستدعى « هريجس » وأولم له كأنه يريد اكرامه
وامر الخدم ان يقبضوا على ابن « هريجس » من غير علمه ويذبحوه
ويطبخوه ، ويقدموه طعاماً له ، بدون ان يعلم ، ففعلوا ما امروا
به ، واكل « هريجس » ثم امر الملك فأتى برأس الولد واخبر
« هريجس » بما كان ، فسكت راضياً طائعاً ، وهو على غاية من الحقد ،
وتوقع نهزة الانتقام الشديد ، اما « كورش » فلم يقتله الملك
بل حافظ عليه ورباه في بيته ، ولما كبر اظهر من الحذاقة
وحسن الاخلاق ما سر الناس والملك معاً ، فلم يتوقع منه
شراً ، واذن له في الذهاب الى ابيه . اما « هريجس » فرآه خير
واسطة لانتقامه من الملك فهيج العظماء وبعث الى « كورش »
يخبره انه عزم على تمليكه وحضه على ان يهيج الفتنة على « استياجس »
لان كثيرين من الماديين قد كرهوه . قال له ان انت فعلت
ذلك وقدمت بجيش انحاز الناس عموماً اليك ، فحشد كورش
جيشاً من الفرس وهاجم مادي وكان له ما اراد « هريجس »
واصبح ملكاً

عبادة الماديين

كانت العبادة تقتصر على تقديس المادة ، لحلول الله فيها ،
فنتج عن ذلك عبادتهم المنحوتات . الا ان بعضهم لم يسلم بتلك
العقيدة ، فعمدوا الى اصول الدين واصلحوه ، فكان من عقائدهم :
ان المعبود ينبغي ان يكون ذاتاً مجردة عن المادة ، متسلطا
عليها . ونسبت عبادتهم هذه الى « زرادشت » وقد تكلمنا عنها اعلاه
ومنهم من كان يعبد الارض او تربتها كاصل الحياة ، ثم

انهم عبدوا الشمس او النور والنار والهواء واعتبروا النار جسداً طاهراً ، ولم يسمحوا باطفائها على مذابحهم وهم يزعمون انها نزلت عليهم من السماء . ويظهر انهم اعتقدوا الخلود والثواب والعقاب بعد الموت ، فان الصالحين على ما يقولون ، يستقبلهم الروح الصالح ويرحب بهم ، فيدخلون الديار السعيدة . اما الاشرار فيطرحون الى الهاوية ، بملكة الروح الشرير ، ويأكلون الاطعمة السامة .

ديانة الفينيقيين

كان الفينيقيون يعتقدون بوجود كائن مدبر لهذا العالم الذي اوجده بمطلق ارادته ، وهذا الكون وما فيه لا يمكن ان يكون علة لنفسه ، فنظروا الى اسمى الكائنات المنظورة ، فتوهموها الهاً قادراً ، فعبدوه وجعلوا مركزه الشمس ومن دونها الكواكب والاجرام السماوية ، وهي مسكن الملائكة ، خدامه . واطلقوا على ذلك الكائن اسم « بعل » ومعناه السيد ودعوه ايضاً باسم « أدون » اي السيد ايضاً او « ملوخ » اي الملك

وقد جعلوا لذلك الاله اماكن للعبادة ، نسبوها اليه كبعلبك ، و « بعل صيدا » و « بعل بيريت » (بيروت) . واما « بعل صور » فاطلقوا عليه لقب « ملكارت » اي ملك القرية او المدينة ، ولم يكتفوا بذلك فقط بل اتخذوا لهم آلهة اخرى ، ولكنها دون مقام « البعل الاكبر » فألّهوا الظواهر الطبيعية ، وجعلوا السيارات السبع بعولاً ، وجعلوا لكل بعل بعلة اي زوجة ، وزادوا ايضاً كوكب القطب الشمالي المعروف بالمسمار ، وكانوا يتخذونه هادياً في اسفارهم . فكان لهم من جرّاء ذلك الآلهة الآتية :

١ – عشتروت بعلة جبيل وزوجة البعل الاكبر « تموز » او « ادون » واطلقوا عليها لقب « ملكات شمائيم » اي ملكة السماء

٢ – « بعل صيدون » وزوجته « عشتروت »

٣ – « ملكارت » بعل صور وزوجته « عشتروت » ايضاً

٤ – « بعل حمون » في قرطاجة وزوجته « تانيت »

وكانت عبادة عشتروت مفضلة بين سائر العبادات ، فقد ورد ذكرها على اختلاف اسمائها في كثير من الاديان ، فكانت

« الزهرة » او « عشتروت » في فينيقيا

« استار » او « عشتار » في بابل

« افروديت » في بلاد اليونان

« فنيس » او الهة الجمال عند الرومان

ومما زاد في شهرة « عشتروت » الاسطورة الخالدة الآتية :

زعموا ان شاباً جميل الصورة حاضر المروءة ، كان يعيش في جبيل واسمه « ادون » وهو الرب المتجسد على الارض ، وكان صياداً ماهراً لا تخطئه الرمية ، وقد خلف اباه « سنيراس » ملك فينيقيا وقبرص وكيليكيا ، وكان في مدينة صور فتاة على جانب عظيم من الحسن والبهاء اسمها « عشتروت » الهها سكان صور لوفرة جمالها ومشابهتها نجمة الصبح « الزُهَرة » رفيقة القمر ، فأحب كل منهما الآخر حباً جماً ، فحسده احد الآلهة الغريبة وقد جاء يبحث عن « عشتروت » فأخبر بخبرها ، فغاظه الامر جداً ، فمسخ نفسه خنزيراً وذهب مصعداً في جبال لبنان يبحث عن « ادون » عشيق « عشتروت » ، فوصل به المسير الى « افقا » حيث كان « ادون » يتصيد ، فما وقع بصره عليه حتى ادركه وضربه بطنفوسته ضربة ذهبت بحياته ، فحزنت عليه « عشتروت » حزناً شديداً وابت ان تستبدل حبه بآخر (١)

ومثلوا « الزهرة » بالهة الحب والجمال والهوى ، ومثلوا « ادون » باله الشمس ، وجعلوا الربيع رمزاً له لانه يموت ويتجدد ، واتخذوا

(١) ونرى رسمه منقوشاً على صخر وامامه خنزير في قرية الغينة من قضاء كسروان ورسمه قائماً من الموت على صخر في قرية المشنقة من بلاد جبيل

عيد موته في الخريف ، حيث تجف نضارة النبات ، واتخذوا الربيع رمز قيامته حيث يعاود الارض الخصب والازهار . وكانوا يحتفلون بعيد موته خريفاً ، فتتألف مواكب الفتية والفتيات ، ويأخذون بالبكاء والعويل ومن ورائهم عذارى الهيكل يحملن على رؤوسهن ، اطباقاً ومقاطف مملوءة ازهاراً واثماراً وطيوباً وعطوراً على اختلاف انواعها ، ومن ورائهن نساء لابسات اثواب الحداد ، عليهن سرابيل ضافية الذيل لا نطاق لها ويسدلن شعورهن قارعات صدورهن ، خادشات وجوهن ، منشدات المراثي على ايقاع المزامير والطبول (٢) . ومن وراء هذا الموكب الكهنة يحملون تمثال الاله « تموز » او « ادون » صريعاً على نعشه والدم يقطر من جنبه ، وكان كل من رآه يبكي وينحب معولاً ، ثم يسيرون الى النهر المعروف باسمه « ادونيس » (٣) ويغمسون التمثال في النهر زاعمين ان مياهه تعيده الى الحياة ، وعندما يجيء الربيع يحتفلون بقيامته ، وتنقلب اتراحهم افراحاً ، ويستسلمون الى الملاهي واسباب العبث واللهو والضرب على الطبول ونفخ المزامير

وان نحن استقصينا البحث عن هذا البعل ، يتضح لنا ان المعني به ، الطبيعة الهيولية بكل قواها تبدع وتفني ، وتخلق وتلاشي ، وتحيي وتميت ، ولحسبانهم اياه علة الموجودات ومولد الكائنات دعوه « تموز » او « ادون » ومنه اشتق اليونان اسم « Adonis » . وكان لكل « البعليم » علاقة مع بعض النجوم السيارة ، الا ان الاله « تموز » معبود مدينة جبيل كانت علاقته مع الاجرام الفلكية اعظم من غيره

(٢) سفر حزقيال ٨ : ١٤

(٣) نهر ابراهيم

الثالوث الفينيقي

كان لهم نوع من الثالوث، في عباداتهم، وكان لكل مدينة ثلاثة آلهة هي:

في صور: « ملكارت » و « بعل » و « عشتروت »
في صيدا: « بعل » و « عشتروت » و « أشمون »
في جبيل: « ايل » و « تموز، أدون » و « بعلة » [٤]
في بيروت: « بعل مرقودي » و « عشتروت » و « عطارد »

وقد ذهبوا في اعتقادهم الى انّ النار مبدأ الحياة ومصدر كل ولادة وابادة، وذلك لنسبتها الى الشمس

فبعل « حمون » في قرطاجة وهو المحرق

والاله « راست » في قبرص ومعناه الصاعقة

وقد رمزوا بالحجر الاسود الى الاله الناري، ولا سيما الحجارة التي ترى انها نزلت من الجو ملتهبة، وهي التي تقذف بها الكواكب

فقد سجد الصوريون « لملكارت » ممثلاً بقطعة كبيرة من الزمرد وهي بلمعانها ترمز عندهم الى طبيعة الاله النارية، وسجدوا ايضاً الى « عشتروت » في قبرص وقد تمثلوها بحجر مخروطي الشكل وفيه اشارات ترمز الى عمل الاعضاء التناسلية، واطلقوا على هذه الحجارة بيت « ايل » اي مسكن الرب

ونرى انه من خواص ديانتهم، انهم كانوا يتعبدون لاوثانهم دون ان يجهدوا فكرهم في تنظيم آلهتهم وبيان العلاقات التي تربط الهاً بآخر، كما نرى في ديانة الاشوريين وفي اصنام اليونان، فان بين آلهة هؤلاء الشعوب بعض النظام بحيث يتسلسل صغيرهم من كبيرهم، وينتمي بعضهم الى بعض بخلاف آلهة مَن نحن

(٤) ولبعلة جبيل ذكر في مراسلات تل العمارنة المكتشفة حديثاً ويرتقي عهدها الى القرن الخامس عشر ق. م

بصددهم، فان في معبوداتهم تشويشاً ما، ولعلّ هذا الاختلاط ينجم عن حالة الفينيقيين السياسية واستقلال مدنهم، وقد نجد المعبود الواحد متصفاً في مدينة بصفات لم يعرف بها في مدينة اخرى قريبة منها

وما لا مشاحة فيه ان عبادة البعل كانت تعم كل انحاء فينيقية. ومعنى اسمه في اللغات السامية، الرب والسيد، وإنْ ذلك الا صفة عامة لجميع آلهة فينيقية، كانوا ينعتون بها معبوداتهم الخاصة في كل مدينة كما رأينا [٥]

ذبائحهم

انفرد الفينيقيون بتقديم الذبائح البشرية، فكان الآباء يلقون اولادهم في النار المضطرمة، لاعتقادهم، ان في النار شيئاً من الالوهية، فكانوا يضحون باولادهم، استرضاء لها ويستبدلون الضحية احياناً بحيوان او طير، وزعموا ان الضحايا البشرية اكثر قبولاً عند الآلهة من غيرها، فقدموا البكر من اولادهم او احدث مولود لهم معتقدين انهم بذلك يكرمون الاله بانفس ما يملكون [٦]

اعتقادهم بخلود النفس

كان الفينيقيون كالمصريين والاشوريين يعتقدون ان الانسان لا يضمحل بعد الموت، وما الموت الا رقاد، لا بد بعده من يقظة، ولذلك كانوا يدرجون الجثة بلفائف ويغطون الوجه بغشاء

(٥) تسريح الابصار ج١، للاب هنري لامنس اليسوعي ص ٤٢

(٦) الكتاب المقدس، سفر اللاويين ١٨ : ٢١

من ذهب ، وتلف جثث الاغنياء بغشاء من ذهب ، ويدفنون مع الميت كثيراً من الحلى والنفائس ليتحلى بها يوم البعث ، وليستقبل يوم الحساب الرهيب [٧]

كهانهم

كان الكهنة يلبسون في الاعياد ملابس النساء ، ويخضبون وجوههم بالحمرة ، ويزججون حواجبهم ، ويكحلون عيونهم ، ويعرون سواعدهم الى الكتف ، ويحملون السيوف والحراب ، ويتأبطون دفوفاً ومعازف يضربون بها ويرقصون ، ويصخبون ويدورون على عقب واحدة ، ويحنون رؤوسهم الى الارض ، ويخدشون اجسادهم بالسيوف والحراب حتى اذا سالت دماؤهم قدموها ضحية لآلهتهم [٨]

وكان للكهنة نفوذ عظيم في تدبير المملكة ، يخضع لهم الحكام ويستشيرونهم ويعملون بآرائهم

وبالاضافة الى ما تقدم ، نرى ان عبادة الحجارة كانت من خواص دينهم ، فكانوا يقيمون انصاباً ينحتونها ويدعونها « بيت ايل » اي بيت الله يزعمون ان الذات الالهية فيها وتسكنها ، واكثر ما كانوا يختارون لعبادتهم حجارة الرجوم ولاسيما تلك التي رأوها ساقطة من الهواء على شكل شهب نارية فيعدونها لذلك هبة سماوية . واذ كانت هذه الرجوم مركبة من مواد بركانية ذات لون اسود فتوافر عددها في لبنان ، فلذلك شاعت عبادتها في انحائه ، ومما كان يزيد في اعتبارها عند القوم ان

(٧) سوسنة سليمان في اصول العقائد والاديان ص ١٥ ، المطبعة الاميركية بيروت

(٨) سفر الملوك الثالث الفصل ١٨ : ١٦ و٣٠

يروها على شكل مخروط لما يجدون في هذا الشكل من الرموز الدينية [٩]

وعلى الجملة نرى ان البعل او الطبيعة هو الاله عندهم ، وهو ذو مبدأين ممتازين : احدهما مبدأ الخليقة الفاعل والآخر مبدأها المفعول . ومن المبدإ المفعول نتجت الآلهات الإناث وليست الأنثى عندهم سوى اعلان لقوة الاله الذكر تظهر خواصه وتقابله .
وكما ان البعل كان الاله العظيم كذلك كانت « عشتروت » الالاهة الكبرى وهي تنقسم اقساماً عديدة على مثال البعل كما رأينا ، فان لكل مدينة بعلاً يُعبد وله بعلة من جنسه ، والبعل يمثل الشمس والبعلة تمثل القمر ، ولبعل « الشمائيم » إلاهة توازيه يدعونها ملكة « هاالشمائيم » .

(٩) المشرق ٢ : ١٢٧ المطبعة الكاثوليكية بيروت .

ديانة العرب القدماء

نلخص ما اورده الشهرستاني عن ديانة العرب القدماء [1] قال : ان العرب في الجاهلية كانوا على اصناف ، فصنف انكر الخالق والبعث (القيامة) وقال بالطبع المحيي والدهر المفني ، وصنف اعترف بالخالق وانكر البعث ، وصنف عبد الاصنام وكان لكل قبيلة صنم منها :

ود : لبني كلب ومقامه في دومة الجندل

سواع : لهذيل

يغوث : لمذحج ولقبائل من اليمن

نسر : لذي الكلاع بارض حمير

يعوق : لهمدان

اللات : لثقيف ومقامه في الطائف

العزى : لقريش وبني كنانة

مناة : للأوس والخزرج

هبل : وهو اعظم اصنامهم وكان على ظهر الكعبة وأساف ونائله على الصفاة والمروة

وكان من القبائل العربية من يميل الى اليهودية ، ومنهم من يميل الى المسيحية ، ومنهم من يميل الى الصابئة ، ونترك من كان منهم من الكتابيين لان بحث ذلك ليس من غرض موضوعنا

واعتقد الصابئة من العرب ، أن للنجوم سلطاناً على البشر ولا

---

(١) الملل والنحل طبعة ليبسك . واليعقوبي وابي الفداء . وصاعد الاندلسي ، والمستظرف للابشيهي

سيا السيارات وتأثيرها في امور هذا العالم ولا ريب ان ذلك اتصل بهم من البابليين والكلدان

وذهب ابو الفداء في تاريخه الى أنهم اعتقدوا بأنواء المنازل حتى لا يتحركوا الا بنوء من الانواء ويقولون : «مطرنا بنوء كذا»

ويقال : ان المجوسية بقيت في بني تميم ومنهم زرارة بن عدي وابنه الذي تزوج بابنته وقد أباحت المجوسية ذلك ، فبعد ان كانوا يعبدون النجوم كالشمس والقمر وعطارد والمشتري وقد دلت اسماؤهم على ذلك منها : عبد شمس وعبد المشتري . وأدخل عمرو بن لحي بن حارثة عبادة الاوثان وكان ملك الحجاز ، ونسبت اليه خزاعة ذلك ، وفي ذلك يقول احد الشعراء :

ياعمرو انك قد احدثت آلهة   شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت رب واحد أبداً   فقد جعلت له في الناس اربابا

وقد أنكر عمرو هذا البعث والحشر ومما نسب اليه قوله :

حيـــاة ثم بعث ثم حشر   حديث خرافة يا ام عمرو

الذبائح والقرابين

قال غير واحد من مؤرخي العرب : ان العرب كانوا يقربون القرابين في البيت الحرام ، من الغنم والابل لثلاث مئة وستين صنماً . وتقربوا الى اصنامهم ايضاً بذبح الآدميين ، واعتقدوا بوقوع التناسل بين عالم الارواح والعالم الجسماني . قال الجاحظ (٢) : ومن قول الأعراب أنهم يظهرون لهم ويكلمونهم ويناكحونهم ولذلك قال شمر بن الحارث الضبي :

(٢) من مقال للشيخ جمال الدين القاسمي مجلة المقتبس المجلد الخامس ١٣٢٨ ه ١٩١٠ م ص ٣٠

(٣) حضأ النار : اوقدها   (٤) اي اسرع فوق ناقة

ونار قد حضأت (٣) بعيد وهن   بدار لا أريد بهـــا مقاما
سوى تحليل راحلة وعين   اكالئها مخافة أن تنامـــا
اتوا ناري فقلت : منون انتم ؟   فقالوا : الجن ، قلت : عموا ظلاما
فقلت : الى الطعام ؛ فقال منهم   زعيم : تحسد الانس الطعاما

وذكر ابو زيد عنهم : ان رجلاً منهم تزوج السعلاة ، وانها كانت عنده زماناً وولدت منه حتى رأت ذات ليلة برقاً على بلاد السعالى فطارت اليهن فقال :

رأى برقاً ، فاوضع (٤) بكر   فلأيأ ما أسال وما أعاما

فمن هذا النتاج المشترك وهذا الخلق المركب «عندهم» بنو السعلاة من بني عمرو بن يربوع وبلقيس ملكة سباء ، وتأولوا قول الشاعر :

لا هم ان جر همـــاً عبادكا   النـــاس طرف وهم تلادكا (٥)

فزعموا ان ابا جرهم من الملائكة الذين كانوا اذا عصوا في السماء انزلوا الى الارض كما قيل في هاروت وماروت ، فجعلوا «الزهرة» امرأة بغياً مسخت نجماً وكان اسمها «اناهيد»

الزواج (٦)

كان العرب يحرمون على الرجل ان يتزوج بأمه واخته وعمته وخالته وبنت الاخ وبنت الاخت ، ولا يجمعون بين الاختين ويكرهون نكاح الابن زوجة ابيه .   — ما حرمه الاسلام وكان في الجاهلية

١ — نكاح المقت : وهو ان يستحل اكبر الأولاد زوجة ابيه باعتبارها ملكاً موروثاً ، فكا يرمي عليها ثوبه اذا اعجبته فتكون له ، وان لم تعجبه يزوجها لمن يشأ بمهر جديد

(٥) الطريق : المستحدث — التليد : القديم

(٦) ملخص عن كتاب الزواج لزهدي يكن ، مكتبة صادر ، بيروت

٢ – نكاح الاستبضاع : وهو ان يقول الرجل لامرأته اذا طهرت من حيضها : ارسلي الى فلان فاستبضعي منه ، ويفعل ذلك رجاء نجابة الولد ، فيأمرها بالاستبضاع من ذي شهرة او فصاحة او نحوهما

٣ – نكاح الخذن : وهو ان يكون لها خليل في السر يُعاشرها معاشرة الازواج

٤ – نكاح المتعة : وهو التزوج بالمرأة لمدة معينة

٥ – نكاح الشغـــار : وهو ان يزوج الرجل ابنته على ان يزوجه الآخر ابنته بشرط ان يكون بضع كل منها مهراً لبضع الاخرى

٦ – نكاح البغايا : وهو ان تضع المرأة على بيتها راية فيدخل عليها من يريد وقاعها ، فأذا اتت بولد الحقته باشبه الناس به

٧ – كان يجوز للرجل ان يتزوج من النساء ما يشاء

سدانة الكعبة

كانت سدانة الكعبة في الجاهلية لبني اسماعيل ، وقد اتصلت باحد اولاده « ثابت » فلما توفي صارت الى جده لأمه « فضاض بن عمرو الجرهمي » ولما تغلبت خزاعة على « مكّة » صارت سدانة الكعبة اليهم ، ونفوا بني جرهم وفي ذلك يقول فضاض :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكّة سامر

ولم يتربع واسطاً فجنوبه   الى المنحني من ذي الاراكة حاضر
بلى نحن كنا اهلها فأبادنا   صروف الليالي والجدود العواثر
ونحن ولاة البيت من بعد ثابتٍ   نطوف بذاك البيت والأمر ظاهر
فأخرجنا منها المليك بقدرةٍ   كذلك بين الناس تجري المقادر

ومنها :

فبطن منى أمسى كان لم يكن به   مضاض ولا بين البطاح عمائر

فهل فرج يأتي بشيءٍ نحبه   وهل جزع ينجيك مما تحاذر

ولم تزل السدانة في خزاعة ، الى ان انتهت الى غبشان الملكاني وصياً لحليل بن حبشية الخزاعي ، فأسكره قصي بن كلاب القرشي واشترى منه مفاتيح الكعبة بزق خمر ، فلما صحا ابو غبشان من سكره ، ندم حيث لم ينفعه الندم ، فسار ذلك مثلًا فقالوا : « أخسر من ابي غبشان » وفي ذلك يقول احد الشعراء :

باعت خزاعة بيت الله اذ سكرت   بزق خمر فبئست صفقة البادي
باعت سدانتها بالنزر وانصرفت   عن المقام وظل البيت والنادي

ثم صارت السدانة الى قريش

الحج

كان العرب يحجون الى البيت الحرام في مكة كل خمس سنوات مرة ثم اعتمدوه كل سنة ، وذكر ابو الفداء قال : « وكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويحرمون ويطوفون ويسعون ويقفون المواقف كلها ويرمون الحجار . »

البرهمية او الهندوس

البراهمة هم سكان الهند ، يعتقدون بتعدد الآلهة ، وجميعها تخضع لثلاثة آلهة عظمى يهيمن عليها الروح العام ، ولهم في نشأة الوجود اقوال فلسفية هي :

نشأة الوجود

كان « الموجود » قبل الوجود يغط في سباته الالهي ، فاستيقظ في خطفة زمنية ، واذا هو وحيد وليس له ثان ولا شيء سواه ، بما هو كائن ، لا عالم ولا هواء ولا ماء ، ولا طير ولا وحش ، ولا انسان ، وليس هنالك خلود او فناء ، فلا شمس ولا ضياء ، فالظلمة تكتنف الظلمة ، و « الكائن قبل الوجود » في فضاء لانهائي ، فتمخضت ذاته بذاته وصاح بشوق شديد ورغبة ملحة « لأتكثّر » ، فبقوة ارادته وشوقه ، خلق العالم وحفظ نفسه باسم « براهمه » الخالق .

نشوء الطوائف

ان نزاع السلالات وامتزاجها في الهند الشمالية كان علة انقسام السكان الى اربع طوائف او درجات مدنية ، او طبقات وراثية بالنسبة الى اللون .

١ — الاشراف او المحاربون

٢ — البراهمة او الكهنة ، وقد ادعوا المقام الاعلى لانفسهم

٣ — التجار والفلاحون

٤ — المنبوذون « سدراز » ، وهم احقر الطبقات وأدناها .

ولحفظ هذه الدرجات حرم الزواج بين الطبقة الواحدة والاخرى ، وليس لاحداها ان يأكلوا مع اهل طبقة اخرى او يخالطوهم .

على ان هذا النظام قد تغير كثيراً على توالي العصور ، وقل التدقيق فيه الآن عما كان في الازمان الخالية ، وهو مبني الآن على قاعدة الاعمال في الغالب ، فاعضاء كل صناعة او تجارة طائفة ممتازة ، حتى بلغت طوائف الهند اليوم نحو الالفين .

الثالوث الهندي

بالكثرة التي رغب فيها « براهمه » ابى ان يترك الامر للاله « سيوه » المخرب الذي يجفف الاوراق ويقضي بالشيخوخة بعد الشباب ، ويدع البحر يبتلع مياه النهر ويفني الايام متتابعة ، وديدنه التخريب ، فاوجد بازائه الاله « فشنو » المخلص الذي به يكون تجديد العالم والمحافظة على نواميسه . وعلى ما تقدم يكون براهمه في ثلاثة آلهة : ١ — براهمه . ٢ — سيوه . ٣ — فشنو .

ولا فرق بين واحد وآخر ، فهم ثلاثة آلهة موحَّدون باله واحد ، فيه قوى ثلاث : ١ — خالقة . ٢ — مخرّبة ٣ — مجدّدة.

وهؤلاء موحَّدون بواحدٍ ، يدبّرون العالم ويسوسون امره ، وينظمون احواله .

الفيدا

اهم كتبهم المقدّسة هي « الفيدا » ، وهي مجموع اسفار كتبت باللغة السانسكريتيّة ، اقدم اساليب اللغة الآرية المحفوظة للآن ، وكان الدين البدائي عندهم عبادة قوى الطبيعة ، ومنذ ذلك الحين اخذوا ينظمون الترانيم « الفيدية » .

عقيدة التناسخ

اوجد الاله الخالق « براهمه » النفوس متنقلة من حالة الى حالة ، ولكل ذاتٍ في هذا الوجود شكلٌ وحيّزٌ ، تتخذهما بحسب درجة فضائلها وآثامها ، ولها حرية التصرُّف باعمالها الخاصّة .

فكل ما يصدر عن الفكر او ينطق به اللسان ويميل اليه الجسد يثمر ثمراً من جنسه ، خيراً كان او شراً . وعقيدة التقمص والتناسخ من اهم اركان الديانة عندهم ، فالنفس الصالحة تولد ثانية في طبقة اعلى من طبقتها ، والشريرة تولد ثانية في طبقة ادنى ، وقد تدخل اجسام حيوانات .

درجات الناس

تتفاوت درجات الناس بتفاوت افعالهم ، فالاضرار البشرية التي تكتنف الانسانية هي النتيجة الضرورية للضرر الادبي الذي ارتكب في حياة ماضية ، فالفضل والنقص المعنويان هما سنّة هذا الوجود ، وعلى المرء ان يسعى وراء الفضيلة ويتجنب النقص ، ليصبح كاملاً ويرضى عنه « براهمه » والآلهة ، فينال جزاء صلاحه .

الفضائل الدينية

ان الاخلاق العملية عندهم ، هي ممارسة الفضائل الدينية التي يقصد بها اندماج الانسان في « براهمه » . ولا تكون الا بالعبادة ، والصلاة والصوم ، والتواضع والصبر على الآلام والتجاوز عن الاهانة ، ومحبة الضعفاء واحترامهم ، ومحبة المرأة واحترامها .

جاء في الشريعة البرهمية ما يأتي :

في احترام المرأة رضى الآلهة ، لانها معمل الحياة ،

ليس في حراسة الرجل للمرأة صيانة لها ، فهي التي تصون

نفسها بنفسها اذا ارادت ،

لا يجوز ان تضرب المرأة ولو بزهرة ،

ان زواج الشاب بالشابة بايجـــاب وقبول منهما ، تطرب له الآلهـــة والملائكة ويرضى عنه « براهمه » ولا يشوبه كدر ولا يعتريه تنغيص ،

إنّ احترام الوالد اجلّ من احترام مئة معلّم ،

إنّ احترام الوالدة اعظم من احترام ألف والد ، فمن اهمل احترامها خسرت صفقته في الحياة ، وذهبت جميع اعماله الصالحة سدى ،

إنّ اوجب الواجبات احترام الوالدين ، لانهما سبب من اسباب وجود الانسان ،

وعلى الارملة ان تتطوّع مختارة ، فتحرق نفسها مع جثة رجلها المتوفى فيرضى عنها « براهمه » ويتقبلها قبولا حسناً ، والا فتعَدُّ منبوذة محتقرة .

غاية النفس

إنّ غاية النفس هو الاتحاد ببراهمه ، ولا يتم لها ذلك الا اذا تجردت عن المادة ، والنفوس الطاهرة تحظى بذلك الانعام السرمدي ، بعد أن تجوز مراتب التطهير في هذه الحياة .

واما الشريرة فتسقط بعد عذابها الدنيويّ بتقمصها في اجسام دنيئة ثم في « ناراكا » لتعذب مئة سنة من سني « براهمه » . واليوم البرهمي يساوي ثمانية مليارات وستمئة وخمسين مليون سنة شمسية .

والنفوس التي هي وسط بين الخير والشر ، تتطهر بتقمصها في جسم حيوان او انسان ، متقلبة في وجودها المادي حتى تصفّى وتنقّى من كل شائبة ، فتتحد « ببراهمه » الكلي القدرة .

الرتب في المذهب البرهمي

١ – الكهنة ، وقد خلقوا بزعمهم من فم براهمه .
٢ – فطريس ، رأس المحاربين وقد خلق من ذراع «براهمه» الايمن .
٣ – بابيس ، أبو المزارعين وقد خلق من فخذه .
٤ – سودير ، ابو العبيد وقد خلق من قدمه .

وهذا ما حمل « كابيلا » احد المفكرين الهنود على الانتقاض على هذه العقيدة والمناداة بالمذهب الحسي ، منكراً وجود « براهمه » ومن اقواله : « ان الانسان موجود ، وعليه ان يلذّ بوجوده ، ويعمل على رفاهيته ما استطاع ، نابذاً عنه الكسل وحياة الاتكال ، مبتعداً عن مضرة الآخرين واحتقارهم . وقام ايضاً الزعيم « پتنجالي » واسس مذهباً صوفياً ، فصّله في قصائد طويلة اطلق عليها اسم « مهبراتا » (١) .

واهتم « قوتاما » بالمنطق وتجديد القوانين الفكرية .

الحكيم الهندي « كويشنا »

رأينا ان التمدن الهندي قام في اول عهده على مبدأ تقسيم الطبقات ، وعدم الامتزاج بينها ، وفرض العقوبات الشديدة على من يتزوج من طبقة دونه او يؤاكل طبقة احط من طبقته ، وما زال هذا المبدأ مرعيّاً في الهند حتى حمل عليها الآريون ودوّخوها ، فاختل نظام الطبقات ، واختلط بعضها بالبعض الآخر ، ونفذ الى الطبقات العليا قوم من رعاع القوم ، يحملون اليها الوهن والفساد ، واشرف التمدن الهندي على الاضمحلال ، وتمخض البراهمة لاصلاح هذا الخلل فلم يسعهم ذلك ، بما وضعوه من الشرائع القاسية لمنع الاختلاط .

(١) ترجمها شعراً الى العربية المرحوم وديع البستاني ونشرها سنة ١٩٥٣

وفي هذه الاثناء نبغ في الهند مصلح كبير ، ق . م ، بثّ في اهلها روحاً جديدة ، هو الحكيم « كريشنا » المولود في صوامع حملايا ، فقد اوجد ديانة اكسبت النفس الهندية صبوتها بالطبيعة والتخيل والخلود ، وانشأ ثلاث طبقات اجتماعية ، عين لكل منها تهذيباً يلائمها ، ففرض على البراهمة ان يتأدبوا بآداب « براهما » ويدرسوا العلوم الالهية ، والزم الملك والمقاتلة على تهذيب « فيشنو » الذي يغرس في النفس الشجاعة والاخلاص ، وحض غيرهم من الطبقات على الاخذ بتعاليم « سيفا » ، وقد ارغم البراهمة على تعظيمه وجعله الهاً للطبيعة والعناصر ، واوجد للناس منفذاً للارتقاء من طبقة الى اخرى بممارسة الفضائل والمحامد الخلقية ، ولم يكتف بذلك بل زاد عليه وجوب احترام النساء ، لان الآريين حتى ذلك العهد لم يكونوا يعتبرون غير الذكور . وهذه المبادىء قد رققت النفس الهندية وحملتها على احترام الكائنات الحية .

تقشف البراهمه

قد اعتاد البراهمة تكفيراً عن خطاياهم وارضاء للآلهة ، ألا يلبسوا إلا ما يستر العورة ، ومنهم من يطرح نفسه في الاوحال والاقذار ، ومنهم من يجلس في حرارة الشمس ، ومنهم من يقتل نفسه مفتخراً في سبيل صلاحه ، ومنهم من يمكث على رجليه واقفاً او متكئاً على شجرة ، لا يرقد اصلاً على الارض ، ومنهم من يشبك يديه ويضعهما على رأسه ، والناس الودعاء يتكفلون اطعامهم . ومنهم من لا يمشي فيرقد غير متحول عن موضعه ، ومنهم من يحلق شعر رأسه ويربط رجليه في غصن شجرة ، ويبقى مقلوباً بحيث يرتفع رأسه مقداراً يعيّنه لنفسه ، ولا يترك هذه الحالة حتى ينبت شعر رأسه ويصل الى الارض ،

ومنهم من يكابد العذاب على ارجوحة معلقاً في ظهره صنارتين من الحديد لمدة معينة تكفيراً عن خطاياه .

ومنهم من يقدم نفسه ضحية لمعبوده فيطرح جسده تحت عجلات عربة ذلك المعبود في يوم عيده ، عندما يطوفون به في الشوارع .

الحج

ان لهم مدناً يحجّون اليها ويحسبونها مقدّسة ، منها مدينة « بنارس » موطن البراهمه ، وفيها كثير من الهياكل يأتون اليها من انحاء الهند ، زاعمين ان من مات فيها خلص ، وفيها كثير من القرود المكرّسة لاله على هيئة قرد ، وفي مدينة « اوديان » او « اودجان » وفي هيكل « جغرنوت » بالقرب من « كوتك » تكثر هذه القرود . وترتيب عباداتهم اليومية في هذه الهياكل هو ان يأخذوا ما فيها من الاصنام ، ويغسلوها ويعطروها بالطيوب ، ومن ثم يصلي الكهنة ويترنمون باناشيد تنشدها النساء وترقص .

الاعياد

من اعيادهم : عيد زواج اله الآلهة ، فيأخذون تمثاله وعليه افخر الملابس تتلألأ عليها حجارة الالماس والياقوت ، ويحملونها على ظهور الافيال ، والناس يغنون امامها وهم يضربون الطبول وينفخون بالابواق وتتقدم الموكب المشاعل ، فيذهبون به الى بحيرة تبعد مسافة عن الهيكل ، فيجعلونه في مركب ويمخرون به .

وفي عيد « راما » يحمل عباده الرماح والسيوف والاقواس والنبال ومن ورائهم ثمانية رجال يحملون هودجاً ، داخله ثلاثة تماثيل من النحاس ، الاول منهم « راما » ، والثاني امرأته ، والثالث

اخوه ، وعلى كل تمثال افخر الملابس مزينة بالجواهر الكريمة والازهار ، وبالقرب من الهودج يمشي خدام يحملون مراوح وسعوف نخل ، ليمنعوا الذبان والغبار عن الآلهة ، وآخرون يخشخشون بالاجراس وغيرهم يضربون الطبول بين الترانيم والاناشيد ، وبينهم من يصفقون منادين « بانارينا ، وباجوفند ، وباموري ، استمعوا لنا واحفظونا من كل شر واثم » .

وفي عيد « جغرنوت » رب العالم ، يضعون هذا الإله في مركبة فخمة ويجرونها ، ويقع تحت عجلاتها عدد وافر من الزوار ، يقدمون ذواتهم قرباناً لاجل ذلك الاله . ولهم اعياد غيرها ، ويعتقدون ان الالهة بحكمتهم يتقبلون الصلوات ويغدقون على المتوسلين النعم ويمنعون الشرور [1] .

---

(١) ملخص عن :
The Wisdom of India, Edited by Lin Yutang.
The sacred Writings by S. E. Frost Ph. D.
وسوسنة سليمان في اصول العقائد والاديان

اللاما

مرّ على الدين اللاّماوي نحو ثلاثة آلاف سنة ، والآخذون به منتشرون من ينبوع نهر « الاندوس » الى حدود الصين ومن تخوم الهند الى قفر « كوبي » وتسمّى هذه المملكة « ثيبة » او « تيبت » وعدد سكانها ينيف عن ستة ملايين ، وهي تجاور جبال « هملايا » .

ولم ينحصر هذا الدين في تلك المملكة فقط ، بل تسرّبت تعاليمه ايضاً منذ عصور متطاولة الى قبائل كثيرة من التتر المتجولين على ضفاف نهر « الولكا » و « كوريا » بجوار بحر اليابان والى كثير من جزائر الهند ومقاطعات الصين .

مقر اللاما وكهانه

ومقر معبودهم « اللاّما » في قصر « باتولي » مبني في ذروة جبل على مقربة من شاطىء « بارا مبوتر » بينه وبين « لاسا » عاصمة البلاد سبعة اميال ، وفي حضيض ذلك الجبل يقيم نحو عشرين الفاً من الكهنة ، تتفاوت رتبهم الدينية بحسب بعد منازلهم وقربها من عرش « اللاّما » .

اعتقادهم

يعتقدون أن « اللاّما » ازليّ لا يموت وهو محيط بكلّ الامور ،

جامع لانواع الفضائل ، ويسمونه « ابو السماوات » وهو لا يُرى الاّ في مكان سريّ في قصره يجلس فيه الاربعاء بين مئات المصابيح الذهبية ، وعليه من الحلى وانواع الجواهر النفيسة ما يقصر عنه الوصف .

الحجّ

وهم يتقاطرون الى زيارته من كلّ صوب وأوب في موسم معلوم ، وقليل منهم من يفوز بالدنوّ منه عل قيد اذرع . وعلى الذين ينالون شرف الدخول الى مقدسه ان يطرحوا انفسهم الى الارض ركّعاً وسجوداً ، وهم بعيدون عنه مرمى النظر ، اجلالاً له وتكريماً . ولا يختصّ بهذه المنحة السامية إلاّ الملوك وعظماء الامراء وزعماء القبائل ، فيرونه عن بعد من طرف خفيّ ، دون ان يخاطبوه او يرفعوا اصواتهم .

المغفرة

وهذه الزيارة تغفر لهم كل ما اجترحوه من الآثام والكبائر مدى الحياة ، وهم يتبركون من « فضلاته » ويذخرونها في اوعية صغيرة ذهبية ثم يعلقونها كالتمائم والتعاويذ في اعناقهم واعضادهم ، يستشفون بها من الامراض ، ويدفعون كيد الأبالسة ونزعات الشياطين ، وهم يشترون تلك الذخائر بالوف الاموال ، ومن حصل على مثقال منها فقد نال بزعمهم سعادة الدارين .

السلطان السياسي

و « للاّما » سلطان سياسي فضلاً عن سلطانه الديني ، وبلاده وان كانت تحسب جزءاً من الامبراطورية الصينية ، فهو يدير حكومتها مستقلاً بواسطة عمـــال يسمونهم « خانات » . وله في

« باكين » وغيرها من العواصم في الشرق الاقصى سفراء ، وامبراطور الصين نفسه كان يؤدي له الطاعة والاحترام ، ولاعوانه « اللاّماويين الصغار » سلطان نافذ بين الناس خاصتهم وسوادهم ، وهم يجبون الهدايا ويجمعون النذور من بلاد « المغول » و « ثيبة » والهند الغربية وغيرها باسم « اللاّما العظيم » .

خليفة اللاما

متى ادرك الهرم « اللاّما » او مات بسبب من اسباب الموت ، فان روحه تفارق جسده لتحل في جسد مولود آخر . وله عندهم علامات وفروق خاصة ، فيأخذ « اللاّمويون الصغار » بالبحث عنه بين مواليد نسائهم ، حتى اذا تحققوا وجوده في طفل ما قالوا : هذا هو اللاّما ، فاتخذوه خلفاً لسلف قبله ، وأقاموا عنه نواباً منهم حتى يبلغ اشده وعلى هذا لا يكون ذلك في زعمهم موتاً طبيعياً بل هو انتقال .

التوحيد

وهم مع اعتقادهم هذا يؤمنون باله واحد ويثلثون شخصيته ، ويزعمون انه ظهر اول مرة « سنة ١٠٢٦ ق . م » وكان يملك في بلاد الهند ، وهو متجسد يموت في الظاهر ، ولكنه في الحقيقة يتنقل من مسكن الى آخر ، مع انه ازلي حي سرمدي لا يموت ، ولا يريدون به نفس « اللاّمـــا » العظيم الذي يسميه الصينيون « هوفو » اي الاله الحي .

الخلود والكهّان

انهم يؤمنون بخلود النفس والثواب والعقاب ، ولهم صلوات واصوام وذبائح وقرابين وكهانة ذات فروض ونذور ومناسك وصوامع

واديار ، وعدد كهنتهم يتجاوز الثلاثين الفاً ، وكلهم يلبس البسة خاصة ذات مناطق صفراء وقبعات تختلف اشكالها واوضاعها باختلاف رتبهم الدينية ، وللكهنة مدارس تلقنهم فروض الدين ونواميسه وتعاليمه وشيئاً من الطب وعلم الهيئة .

الزواج

ويكثر بينهم عدد الرجال الذين يتزوّجون بامرأة واحدة ، والسبب في ذلك كما يقال كثرة الرجال وقلة النساء .

وكثيراً ما تتزوج امرأة واحدة بعشرة رجال وغالباً يكونون اخوة ، وتقوم لهم بواجبات الزوجيّة جميعاً ، وانما حق انتخابها اولاً يكون لاكبرهم (١) .

---

(١) ملخص عن : Marcel Granet : La Chine et l'Asie Centrale
وعن : سوسنة سليمان في اصول العقائد والاديان .

الكونفوشيوسية

ان اسم « كونفوشيوس » هو « كنج فوتسو » ولد في قرية قرب « بكين » سنة ٥٥١ ق . م ومات سنة ٤٧٩ ق . م .

وهو احد ابناء الاقاليم الصينية ، تزوج في سن التاسعة والعشرين ، وتعين مراقباً عاماً على الحقول والمزارع ، وبموت والدته اعتزل العالم حداداً عليها ثلاث سنوات ، كان في اثنائها يفكر بالقوانين الادبية ، ويدرس شرائع الحكماء . وبعد انقضاء مدة الحداد على امه ، طاف في انحاء الامبراطورية الصينية وتوافد عليه الطلاب يتتلمذون له ، ومعظمهم من الحكام والمتعلمين والضباط ، واعتنقوا مذهبه ، وراحوا ينشرونه في طول بلاد الصين وعرضها .

وتولى « كونفوشيوس » منصب القاضي العام ، واول عمل قام به هو ، انه حكم على شخص لم تنله يد القضاء ، لوجاهته وغناه ، فتكاثر خصومه :

« إن نصف الناسِ اعداءٌ لِمنْ ولي الاحكام هذا إن عدَلْ »

وتغلبوا عليه فعُزِل من منصبه ، ونفي من بلده ، فكان يجوب البلاد حاملاً بذور تعاليمه يبذرها في كل ارض مخصاب ، ولما بلغ الثامنة والستين من العمر ، رجع الى موطنه ونشر مؤلفه القيم « شو كنغ » بحث فيه الاخلاق والسياسة ، مبيناً علاقة الحاكم برعيته ، والاب بأولاده ، والزوج بزوجته ، ثم وضع كتاباً آخر « تاهيو » او المعرفة الكبرى وكتاب « تشنغ يانغ » او الوسط الغير المتغير .

تعاليمه

المعرفة الحقة هي ان يعرف الانسان انه يعرف ما يعرف ويعلم ما يعلم ، وانه يجهل ما يجهل ، واهم ما تجب معرفته هو الواجب ، لان الشريعة الانسانية التي نجبر على العمل بها ، تشبه محيطاً بدون شاطىء ، وهي المنتجة للكائنات والمبقية عليها ، وتنال اسباب السماء ارتفاعاً ، وهذه الشريعة هي شريعة العقل .

فانه لواجب علينا ان نطبق عملنا على مبادئها الانسانية الملازمتها لنا ، وغير متبدلة ، ولا نقدر ان نحيد عنها البتة ، لانها شريعة مطلقة مقدسة ، وغاية الشريعة الادبية كمال الذات البشرية . والكمال هو القوة المنتجة للسماء والارض ، وهو مبدأ كل وجود وغايته ، ولولا الكمال لما كان للكائنات وجود .

اهم الفضائل

ان اهم الفضائل عنده هي :

قوة النفس ، والاعتدال ، والعدالة الانسانية . والفضيلة تلخص بمحبة الناس جملة ، حباً جماً ، واعتبار سائر الناس .

ونسب اليه قوله[١] : « ان الحكام الظالمين كقطاع الطرق ، تجب معاملتهم كأئمة لصوص » .

ومن اقواله : ان من يسرق من الانسانية شيئاً يدعى لصاً ، ومن يسرق من العدالة شيئاً يدعى ظالماً .

الشعب اشرف شيء في العالم ، وكل الناس اخوة ، جاؤوا من مصدر واحد وفعل واحد ، وتفاوتت اعمالهم بحسب ميولهم ،

---

(١) ويذهب اخرون الى ان هذا القول هو لاحد تلامذته « منشيوس » .

فبعضهم يشتغل بفكره والبعض بذراعه ، فالذين يشتغلون بعقولهم يحكمون الناس والذين يشتغلون باذرعهم محكومون بالناس ، والمحكومون بالناس هم الذين يطعمون الناس .

والمبدأ العام في العقيدة « الكونفوشيوسية » عبادة الاسلاف ، والصلاة على ارواحهم ، وتقديم القرابين من اجل راحتهم ، وعمل المبرات في سبيل حفظ تذكارهم .

ان معلم الصين هذا ، لم يكن نبياً ولا ملهماً ولم يدّع معرفة الله بما يفوق الطبيعة او معرفة المستقبل ، ولم يقل شيئاً في الروح غير المحدود ، وانما تكلم قليلاً في الحياة المستقبلة ، وكانت سنته العظمى الطاعة للوالدين والرؤساء واحترام القدماء والتمثل بهم في الفضائل .

ومما ترك لنا من التعاليم وشهادة تلامذته ، نراه هو نفسه قد سار على النهج القويم وبمثاله الحسن زاد وصاياه فاعلية ، ووضع للصينيين القاعدة الذهبية على طريق السلب وهي : « كل ما لا تريدون ان يُفعل لكم لا تفعلوه لغيركم » وهذا ما جاء في الكتاب المنسوب اليه « الملك شو(١) » :

قال « يو » : اسلك باستقامة في سبيل الثروة ، وتنكب عن الحرام ، اذا كان يقود اليها ، واعلم ان للظل وللصدى اثراً .

كن حذراً وروض نفسك جيداً ، فلا تنطق هذراً ، وان تراءى لك اضطراب ، فلا تسقط بعصمة الشرائع والوصايا ،

انك لا تجد مسرتك بالكسل ، فلا تستسلم الى المسرات ، واذا استخدمت عند الاثرياء ، فلا تدع احداً يتداخل بينك وبينهم ،

(١) ترجمناه عن الانكليزية وهو تحت الطبع في مكتبة صادر .

اقصِ الشر بعيداً عنك ، بدون تردد ، لا تطّرح عِبَرَ الحكمة انْ كنت تشك بها ، ادرسها وانظر في مضامينها ملياً ، فربما تتبين ضوء العقل بها .

لا تعاند الحق بمدح الجماهير لك ، ولا تضاد رغبتهم متبعاً رغباتك ، تدبر الاشياء كلها بدون ضجر او ملل .

العقوبات الخمس

قال « تي » يا « كاوديا » انك الاوحد بين وزرائي ، وانك الاوحد بين شعبي ، والمدافع عن قوانين الحكومة التي اهلتك لان تكون وزيراً للعدل ، فتحكم بالعقوبات الخمس وتجازي بالحسنات الخمس الرئيسية بالنظر لمملكتي الصالحة .

قد ينفي القصاص القصاص ، ولكن الشعب لا يفهم ذلك الا اذا شاهد العقاب ، تابع عدلك وكن مستقيماً .

اجابه « كاوياد » : ان فضيلتك يا سيدي « تي » لا يجوز عليها الباطل ، فقد اجريت الحكمة على وزرائك بلطف ووداعة ، وسست شعبك بكرم ورأفة ، ولا قصاص على المجرمين الذين تصلحهم الرحمة ، ولا اعتراض على حكمك سواء عظم او خف .

ولا ريب انك سلكت مع المجرمين بمجال الاتهام حسناً وبمجال الاثبات عدلاً ، وانك لتقدر القيم الانسانية قدرها ، فلا تقتل البريء ولا تأمر بالقتل الا مجبراً ، وقاتلُ النفس يقتل ، ولكل عمل جزاؤه . ان عدلك قد اجاز محبة الفضيلة الى ضمائر الشعب ، فهو لا يجعل سبيلاً الى حكامك ان يحكموا وقد اقفل السجن ، لان الضمير قد استيقظ .

قال « تي » هذا ما ارغب فيه وارجوه ولطالما فكرت به ملياً

وتطلبته ، وقد ظفرت به الآن بحكمتك ، فاني اتمنى واتوسل الى الشعب ان يتمسك بالفضيلة ويعلم انه مسؤول عن اعماله ، واذا قلت الشعب عنيت الفرد لان من مجموعه الشعب .

لقد ذهب معلم الصين الاعظم « كونفوشيوس » عن هذا العالم وهو لا يعلم ان مبادئه ستزدهر ، وتأتي بثمار يانعة يقدسها الصينيون ويجرون عليه صفة الالوهية .



ديانة اليونان القدماء

يؤخذ من الاساطير اليونانية ، ان انتشار التمدن القديم بين اليونان ، كان بواسطة مهاجرين شرقيين « كقدموس الصوري » و « زينون » القبرصي وغيرهما ، قدموا الى بلاد اليونان يحملون فنون الشرق وتهذيبه .

ففي بعض الاساطير : ان « سكروبس » جاء من مصر يحمل فنون وادي النيل وعلومه وحكمة كهنته ، وهو الذي بنى « سكروبيا » التي اصبحت بعد ذلك حصن مدينة « اثينا » ، وان « قدموس » الفينيقي اتاهم بحروف الهجاء ، واسس مدينة « ثيبس » . ونواة الحقيقة في هذه الاساطير ، على الارجح ، ان اليونان الاوروبيين اخذوا مبادىء تهذيبهم عن الشرقيين .

معتقدهم

كانوا يعتقدون ان اسلافهم من الابطال من سلالة الهية ؛ فلكل قبيلة وكورة ومدينة وقرية تقاليد تتعلق بابطالها ، يحفظونها ويتغنون بمآثرهم ، « فهيراكليس » هو اعظم ابطالهم ، قد اتى نحو اثني عشر عملاً فوق طاقة البشر ، وفي آخر ايامه نقل من أبالة مشتعلة الى مقام رفيع بين الآلهة الخالدين .

المجلس الاولمبي

كان عندهم هيكل تعبد فيه الآلهة كلها ، ويرئس ذلك المعبد مجلس مؤلف من اثني عشر عضواً ، ستة آلهة وست الاهات ،

مسكنهم جبل اولمبوس . وطبقات الهواء فوق الارض ، فالستة الآلهة هم :

١ – « زفس » ابو الآلهة والناس .

٢ – « بوسيدون » حاكم البحر .

٣ – « ابلو » او « فيبس » اله النور والموسيقى والنبوة .

٤ – « ارس » او « مارس » اله الحرب .

٥ – « هيفستس » اله النار المشوه ، وصانع صواعق « زفس » .

٦ – « هرمس » المجنح القدمين رسول السماء واله الاختراع والتجارة .

والالاهات الست هن :

١ – « هيرا » ملكة « زفس » شديدة الغيرة ، عظيمة الكبرياء .

٢ – « اثينا او بلاّس » وقد نشات كاملة النمو من جبهة « زفس » وهي الاهة الحكمة ، وحامية الصناعات الاهلية .

٣ – « ارطاميس » الاهة الصيد .

٤ – « افروديتي » الاهة الحب والجمال ، المولودة من زبد البحر .

٥ – « هتسيا » الاهة المواقد .

٦ – « ديمتر » ام الارض والاهة الحبوب والحصاد .

وبالاضافة الى ذلك كان لهم آلهة والاهات لا تحصى ، بعضهم اشخاص سماويون ، وبعضهم عفاريت « جان » ليسوا ببشر ولا آلهة ، ورئيسهم « هابديس » سلطان الاقاليم السفلى .

موحى دلفي

هو هيكل « ابولو » في مدينة « دلفي » . كانوا يزعمون ان الآلهة في الازمنة القديمة فقط ، كانوا يزورون الارض ، ويخالطون البشر ، وكثيراً ما اعلنت ارادتها ومقاصدها بالامارات والاشارات ، تخاطب الناس وتنصح لهم بطريقة خاصة ، تعرف بالايحاء ، ويعتقدون ان « زفس » يحمل احياناً تلك الاعلانات ، وكان « ابولّو » يبلّغ تلك الرسائل .

على ان اولئك الآلهة لم يظهروا انفسهم ، ويعلنوا ارادتهم الالهية في كل مكان ، بل في مواحي مختارة ، اطلقوا عليها لفظة « Oracles » واشهر مواحي اليونان هو هيكل « دلفي » في « فوسيس » ، حيث كان البخار المخدر يصعد من شق عظيم عميق في الصخور ، وكانوا يعتقدون ان هذا البخار هو نفس « ابولو » الموحي . وقد بنوا له هنالك هيكلا اكراماً له .

وكانت المخاطبات تتم غالباً على يد « البيثا » ، او الكاهنة التي كانت تقعد على متنفس البخار ، على كرسي ذي ثلاث قوائم ، وحينما كان يغلبها البخار ، كانت تبلغ رسالة الاله ، والكهنة الحاضرون كانوا يدونون ما تنطق به الكاهنة ، ويفسرونه او ينظمونه شعراً مسدس المقاطع ، وكان بعض ذلك الوحي حكماً ونصائح بسيطة نافعة ، واما المختص بالمستقبل فكان كلاماً غامضاً يفسره الكهنة بما يوافق الحوادث ، وكثيراً ما كان اهالي رومة يأتون لاستشارته .

الالعاب الاولمبية

من اشهر التعاليم الدينية التي ورثها اليونان عن اسلافهم هي

الالعاب المقدسة ، التي كانوا يحتفون بها في « اولمبيا اتلس » اكراماً لزفس الاولمبي .

الاسرار وهاتفو الغيب

قال ارسطو ما ملخصه : ان الداخلين الهياكل في عداد الكهنة لم يكونوا ليتعلموا الاسرار ، ولكن ليقفوا على رسوم ما كانت موسومة في مسرح واسع ، تذكرهم بقصة « باريس » وابنتها « بروزربينا » المعبودتين تحت اسم « اليسيوس » ، وبالنعم الممنوحة للبشر كالزراعة والانتقال من العيشة الوحشية الى العيشة المدنية ، وكانت هذه الرسوم تمثل صور اشباح ظاهرة في ليل مدلهم ما بين الرعد والبرق ، لتلقي الرعب في قلوب الناظرين اليها ، وتجعلهم يتذكرون قصاص المذنبين في الآخرة ، فيرتدعون عن غواياتهم في هذه الحياة ؛ وكما ان الاسرار كانت تثبت للشعب الاعتقاد بحياة مستقبلة ، كان هاتف الغيب يذكرهم بالعناية الالهية ، ويكشف لهم المستقبلات ، وكان ذلك مشهوراً في اماكن عديدة ، اخصها في هيكل « دلفي » وفي « دودن » وفي « اولمبيا » وفي « ارغوس » .

حكاية القدر

يزعمون ان القدر هو ربة عمياء ينسب اليها كل ما يحدث في العالم ، واحكامها غير مردودة ، حتى ان الآلهة نفسها لا يمكن ان تنقضها ، وجميع ما قضي به كان مكتوباً في مكان خصوصي في « الاولمب » ، هو في علم كل اله من الآلهة ، وكانت المنية عماداً لهذه المعبودة ، يعتقدون فيها الثبات وعدم التقلب . قال « بوليه وشاسان » : انهم كانوا يمثلونها منتصبة على الكرة الارضية ،

تقبض بيديها على قارورة تحوي بخت البشر وحظوظهم .

على ان اليونان قد عرفوا الاله الحقيقي ، فبنوا له مذبحاً في « آثينا » كتبوا عليه : « للاله المجهول » ، وهو الذي اشار اليه بولس الرسول حيث خاطب الاثينيين قال : « ففي مروري في مدينتكم ومعاينتي لشعائر عبادتكم ، صادفت مذبحاً مكتوباً عليه للاله المجهول ، فذاك الذي تعبدونه وانتم تجهلونه به انا ابشركم [1] » .

---

(١) اعمال الرسل ١٦ : ٢٣ العهد الجديد المطبعة البولسية حريصا لبنان .

ديانة الرومان

إنّ نظام الديانة الرومانية هو نظام الديانة اليونانية ، فكان عندهم المشتري « جوبيتر » في صدر البنثيون ، وهو مثل « زفس » اشهر آلهة اليونان وسلطان العالم الاعلى ، وهو حامي الرومانيين ، ولذلك اقاموا له و « لجونو » و « منيرڤا » هيكلاً عظيماً على قمة تل « الكابيتولين » المشرفة على المدينة .

وكان « مارس » اله الحرب محبوباً وهو اب للسلالة الرومانية حسب معتقدهم ؛ فكانوا يفتخرون بأنهم اولاد « مارس » . وكان « جانوس » احد آلهتهم ذا وجهين ، قدسوا له شهر كانون الثاني ، وكانوا يفتحون هيكله في مدة الحرب ، ويوصدونه في مدة السلم ، وكانت نار الموقد في البيت تعد رمزاً للإلهة « ڤستا » وقد كانوا مولعين بعبادتها ، وكانت الامة كأسرة واحدة تقيم « لڤستا » موقداً مشتركاً في هيكلها حيث كانت النار موقدة من عصر الى عصر ، يوقدها ست عذارى من بنات المملكة الرومانية الجميلات .

الجمعيات المقدسة

كانت الجمعيات المقدسة عندهم اربعاً :

١ — جمعية حفظة كتب « سيبيليا » .

٢ — جمعية « اوغرس » .

٣ — جمعية « بونتفس » .

٤ — جمعية « الهرالدس » .

فكتب « سيبليا » مجلدات مكتوبة باليونانية حجبت اصلها الخرافات وأضاعت معانيها ، وكانت هذه المجلدات تحفظ في صندوق حجري في قبو تحت هيكل « الكابيتولين » وكان عليها وكلاء معينون لحراستها وترجمتها . وكانوا لا يقرأون تلك الكتب للاستشاورة الا حين الخطر العظيم . واما جمعية « اوغرس » فكان عليها بيان الفأل او الطيرة التي هي مناظر عرضية ، أخصها طيران الطيور ، وكانوا يعتقدون ان « جوبيتر » يظهر ارادته بواسطتها ، وكان تفسير الطيرة يقتضي حذاقة عظيمة ، فلا يباشرون الاعمال المهمة ، عمومية كانت او خاصة بدون ان يستشيروا العرافين اولاً ، لمعرفة المصير الذي يصيرون اليه أهو خير ام شر .

جمعية « البونتفس » وعليها ان تحافظ على سلامة جسر خاص على نهر « التيبر » . ولاعضاء هذه الجمعية حق الاشراف على كل الامور الدينية ويدعى رئيسهم « رئيس بنائي الجسور » .

جمعية « الهرالدس » من شأن هذه الجمعية ان تعنى بالامور العامة المتعلقة بالامور الاجنبية ، فاذا اساءت مملكة الرومان اساءة عمداً ، ذهب اعضاء هذه الجمعية الى تخم المملكة المسيئة ورموا اليها رمحاً مغموساً بالدم اعلاناً للحرب .

وكان لهم العاب مقدسة يقيمونها في الاعياد تشبه العاب اليونان ، فمن اعيادهم : « الساترناليا » يعيدونه اكراماً « لساتون » : « زحل » اله الزرع ، وكان ذلك العيد نهزة لجميع الرتب حتى العبيد الذين يحرّرون مدة العيد فقط فينهمكون في اللذات على انواعها .

وذكر الدكتور « جايمس هنري برستد » في تاريخه [1] قال :

---

(١) العصور القديمة ترجمة داود قربان ص ٥١٢ المطبعة الاميركية بيروت

« كان للأم العظيمة ، الاهة آسية الصغرى وقرينها « آتس » جمهور كبير من الرومانيين المتعبدين ، وكان « مثراس » الفارسي « اله النور » محبوباً جداً لدى رجال الجيش فشيدت له الكتائب معابد تحت الارض ، كانت تقام له فيها الحفلات تذكاراً لانتصاره . وكان لكل من تلك الديانات الشرقية « اسرار » مختصة بها معظمها يتعلق بحياة الاله ، ولاسيما خضوعه لسلطان الموت وانتصاره عليه وصعوده الى الحياة الخالدة ، وشاع الاعتقاد ان من يشهد هذه الاشياء ويعاني القيام باعمال تكريسية معلومة ينجو من الشر ويؤهل لمشاركة الاله في حياته الخالدة والسكنى معه الى الابد » .

الديانة الشنتوية

ان كلمة « شنتو » معناها تابع الاله ، ومصدر هذه الديانة بلاد (اليابان) . وكانت هذه البلاد تعبد الشمس منذ الازمنة القديمة ، يقيمون لها مثالاً في كل الهياكل « الشنتوية » من الاجسام الشفافة ، او المرايا ؛ ومن الطقوس التي لا تزال محفوظة عندهم هي الطقوس الهندية القديمة المحفوظة في كتبهم ، هو تقديم الخيل ذبيحة ، لان القدماء كانوا يعتبرون الحصان رمزاً يرمز الى الكائن الاول ، ولما قالوا : ان هذا الكائن هو الشمس كان لا بد ان يكون الحصان من اعوانه ، ويقدمون العبادة الى « تن زيودلي زن » وهو الذي يرسل اشعته بواسطة اقامة حصان في هياكله ، والشمس من اعظم معبوداتهم .

العبادة الروحية

ان هذا الدين يعلم بوجود اله واحد خالق كل شيء ، وهو كامل منزه عن الامور الدنيوية ، ولذلك عهد بها الى آلهة غيره ، وهي ارواح تدبر مهام العالم ، واسترضاؤها يقوم بواسطة الصلاة ، والقيام بحفظ بعض قوانين تتعلق بالسلوك ، كالنظافة وطهارة القلب وسروره ، ويسمونها « سن وكامي » وهذه الارواح او الآلهة هي دون الشمس في العبادة .

من معبوداتهم

١ – « جيسيبو » ويزعمون ان اخاه « تنيسوديس » نفاه الى جزيرة سكن فيها ، فكان يعيش يومين او ثلاثة ايام تحت الماء ،

وهو معبود الصيادين والبحارة . وتمثاله ، يرسمونه جالساً على صخرة وفي يده آلة توقيف مخر القوارب في الماء .

٢ — « داكوكو » وهذا الاله عندما يضرب بمطرقته ، يخرج ما يرغب في اخراجه من الارزّ والمال والملبوس . وتمثاله ، يرسمونه جالساً على قفة من الارزّ ، وفي يده مطرقة وبجانبه كيس لوضع ما يخرجه .

٣ — « توسيتوكو » ويقدمون له العبادة في اول السنة ، ليباركهم فينالوا نجاحاً وتوفيقاً .

٤ — « هولي » وهو اله الغنى والصحة والسعادة .

وهذه المعبودات هي اعم معبوداتهم واهمها وهي بعد العناصر ويسمونها « واي زن » اي الارواح الكبيرة . واما الارواح التي هي دون هذه فهي كثيرة جداً وهي على الغالب ارواح الابطال والمجتهدين الذين تألهوا بأعمالهم العظيمة او صفاتهم الحميدة ، واشهرها واعظمها « فاتس مان » اله الحرب وهو امبراطور اليابان السادس عشر المتأله ، وقد وُلد ولادة عجيبة فزعموا انه نزل عليهم من السماء راكباً على ما يشبه خنزيراً عظيم الجثة وبيده آلة .

والمعبود الاول عندهم هو السائد على جميع المعبودات والمخلوقات ، ومسكنه في اعلى السماوات ، والمعبودات الثانوية تسكن بين النجوم . وهم لا يقيمون لها اعياداً لانها مرتفعة عن البشر فلا تهتم بمخلوقات حقيرة . وعبادتهم تقوم على الآلهة المتسلمة ادارة احكام البلاد والمعنية بمحصولاتها ومياهها وحيواناتها ، وهي لقربها منهم تأتيهم بالسعادة ان أكرمت وبالشقاء ان أهملت . والاعمال الحسنة تنيلهم السعادة الابدية في مكان تحت ثلاث

وثلاثين سماء . واما الاشرار فيمنعون من الدخول الى ذلك المكان ، الا ان يكفّروا عن خطاياهم .

اركان الدين

واركان الدين عندهم هي : النار الطاهرة وهي واسطة للتطهير ؛ والتطهير اما روحي والمراد به الخضوع التام الى حكم العقل ، واما جسدي والمراد به الاحتراس من كل شيء نجس ، كالدم وأكل بعض اللحوم ، ومعاشرة السفهاء ، واستماع الكلام القبيح ، ويتحتم عليهم حفظ الاعياد ، والحج الى الاماكن المقدسة عندهم ، واعظمها المكان الذي فيه إلاهة الشمس ولا بد من زيارته في كل سنة ، واخيراً عبادة الآلهة في الهياكل والبيوت ، وقهر النفس عند المتدينين منهم يعد فرضاً .

الى هنا يقف بنا المطاف في الاديان القديمة ، وقد رأينا أن ما من امة قدرت ان تعيش بدون دين تلجأ اليه ، ولا ريب ان الدين كان سبباً للنظر الفلسفي بما وراء الطبيعة .

واظن ان المذهب الفكري الاغريقي هو الذي يشرح لنا هذه المعتقدات على وجهها ويرينا مبلغ تقدم العقل البشري .

المذاهب الفكرية عند الاغريق

إنّ اول ما نبدأ به من المذاهب الفكرية القديمة هو الفكر اليوناني الذي استمدّه من خلاصة تعاليم الشعوب العريقة في القِدَم ، كما يتضح ذلك لمن يعنى بدراسة الفكر الانساني ، وقد نُقِل عن احد كهنة المصريين مخاطباً فلاسفة اليونان : « انكم ايها اليونانيون ما تزالون اطفالاً بالقياس الى تعاليمنا ومعارفنا » . واول ما نبدأ به من اصحاب الفكر هو :

طاليس المليطي[1]

هو مؤسس المدرسة « الايونية » قيل انه ولد سنة (٦٣٩ ق.م) وتوفي سنة (٥٤٦ ق.م) ويزعم البعض انه فينيقيّ الاصل .

مذهبه

ينحصر مذهبه ، في ان مصدر الاشياء كلها الماء ، ومنه تكوّنت الموجودات واليه تعود ، ولا ريب ان طاليس قد تأثر بالعقيدة الكلدانية الاشورية والديانة اليونانية القديمة التي زعمت ان الالاهة « تيثيس Thethys » الهة البحر هي التي تغذي الكائنات وتمنح الحياة ، وبحثه هذا يقودنا الى فيلسوف آخر هو :

انكسيمندر (٦١١ ق . م ٥٣٦ ق . م)

يقال : انه اول من رسم الخرائط الجغرافية ، وساح في

(١) اعتمدنا هذه الابحاث في الكتب الآتية :
S. E. Frost: The Basic Teaching of the great Philosophers.
E. Durand: Histoire de la Philosophie وغيرهما .

بلاد بابل ، وتعلّم فيها صنع « المِزولة » الساعة الشمسيّة ، وعلّمها قومَهُ .

مذهبه في الخلق

زعم أن المادة التي تكونت منها الموجودات ، هي « العماء » « Chaos » اي شيء غامض غير محدود ولا معيَّن ، قد اختلطت فيه الاشياء كلها ، فلا هو هذا ، ولا ذاك ، ومنه تصدر واليه تعود ، بمقتضى حركة ابدية ، تدفعها القدرة ، فالسماوات والعالم جميعها قد صدرت من هذا الشيء اللاّمحدود ، تبعاً لبعض القوانين الثابتة .

وذهب الى أن الحيوانات كلها مائية ، قد عرض عليها سبب أخرجها من الماء فتركت في الجفاف ، وكان لا بد لها من ان تتطبّع بطبيعة جديدة تغاير طبيعتها المائية ، فأخذت بالتحوّل متطورة شيئاً فشيئاً حتى استقام لها شكلها النهائي ، والانسان متسلسل عن سمكة ، الا ان مفكراً آخر خالفه وهو :

أنكسمين (٥٤٨ ـ ٤٨٠ ق . م)

وُلد في « مليطة » من اعمال آسيا الصغرى فقال : ان الخلق حركة ازلية حصل بها تحول المادة الى موجودات مختلفة ، وذهب الى أن الله هو الهواء نفسه ، وبه اتخذت الاشياء وجودها وأشكالها بالتكاثف تارة وبالتمدد طوراً ، فنتج منه الماء فالارض فالنار ، ثم تكونت جميع الاشياء من هذه العناصر الاربعة . الا ان تلميذه « ديوجنس الايوني » ذهب مذهباً آخر فقال : ان الهواء هو مادة الاشياء كلها فهو روحها ومادتها وهو الامتداد والفكر ، وبه وجد الموجود . وننتقل الى :

هرقليطس (القرن الخامس ق . م)

قيل : انه وُلد في افسس من بلاد اليونان ولم يعرف تاريخ مولده والمشهور انه وُجد في (القرن الخامس ق . م) ونقل عنه مترجموه. الى انه كان متشائماً يسيء الظن بالحوادث جملة ولذلك لم يكن يرى إلاّ باكياً .

مذهبه

قال : ان العنصر الذي تكوّنت منه الاشياء هو النار ، لانها رمز الحركة الدائمة . وجوهر الاشياء لا يثبت على حالة واحدة ، وكل ما في الوجود على اختلاف نوعه وفصله وجنسه يمرُّ وينقضي ، ولا يبقى شيء بدون تغيّر او تحوّل ، والانسان لا يستحم في مياه النهر نفسها مرتين ، لان تدفق الماء الجاري لا يكون هو نفسه .

رأيه

إنّ الحكمة الالهية موجودة ، ولا تناسب البتة بينها وبين اعقل انسان في العالم ، والحكمة الازلية تظهر لنا جلياً بما تدبره من حياتنا الفردية والاجتماعية ، واعظم خير في هذه الحياة هو صدق العزيمة وحسن الخلق والابتعاد عن الكذب . ونرى الآن :

أنكسغوراس (٥٠٠ ـ ٤٢٨ ق . م)

ولد هذا المفكر في « كلازومينا » من بلاد « أبونيا » وهو اول من قال : ان القمر مظلم بذاته ، يستمد نوره من الشمس ، وشرح سبب الخسوف والكسوف .

الخلق

إنّ كل شيء كان في البدء مختلطاً ببعضه البعض الآخر ، وكان مشوشاً وبحادث طبيعي غير مفسّر تفرقت الاشياء عن بعضها واتصل كل جنس بجنسه ، فتألفت الانواع التي نبصرها في هذا العالم ، وذهب الى أنّ اتحاد هذه الاجزاء المتجانسة قد تمّ كما يأتي :

يوجد اصلان : المادة والعقل « Nous » .

فالمادة مؤلفة من ذرات غير محدودة بسيطة ، لا تقبل التجزئة واطلق عليها اسم : « Homeomories » .

والعقل « Nous » هو الذي دفع تلك الاشياء الى الاتحاد ، وقد كانت في حال الاختلاط والامتزاج ، وهذا العقل « Nous » لم يتدخل الا مرة واحدة في التكوين ، وصرف القوانين الطبيعية الى ترتيب الاشياء وتنظيمها طبقاً للسُنّة التي شرعها لها .

ويتقاضانا البحث هذا الى الانتقال الى المدرسة الاليائية التي اسسها « كزينوفان » وقد اوحت اليه مذاهب من تقدمه الى رأي جديد :

كزينوفان (٦٢٠ ـ ٥١٩ ق . م)

وُلد في مدينة « كولون » بالقرب من « افسس » .

الخلق في رأيه

قال : ان الخلق مركّب من اربعة عناصر هي : الماء والارض المتولدة منه ، والنار والهواء .

اعتقاده

لم يكن يعتقد اعتقاد العامة بتأنس الآلهة : « Anthropomor-phisme » ونفى ان تكون مشابهة بين الآلهة والناس ، لا في الجسم ولا في الشكل ولا في العقل .

وواجب الوجود واحد ، يرى ويفكر ويسمع وهو كامل الذات والصفات ، وكل ما في الوجود به كان وبدونه لم يكن شيء .

ولا يجوز البتة القول بان الآلهة تتزاوج وتتوالد ، لان ما يولد مصيره الموت ، وواجب الوجود سرمدي ، ازلي لا زوال لقدرته ، فهو الاول والآخر ، لا بداية له ولا نهاية . وجاء بعده :

برمنيدس (٥٢٥ - ؟ ق . م)

ولد في « إلياء » من بلاد اليونان وانقطع الى حياة التأمل والفكر .

عقيدته

الموجود ، موجود هو ، واللاموجود ليس له وجود ، فالكائن الاول ازلي ، وهو لم يوجد من العدم لان العدم غير موجود ، فهو اذن ازلي واحد بذاته ، لا يقبل التغير ولا يتبدل بل هو ، هو ، ثابت ، واجب الوجود ، ولا مصير له ، فهو واحد في الكل والكل في واحد .

خلق العالم

ان العالم في رأيه قد نتج من مبدأين متعارضين ، وهما الظلام والبرودة ، والنور والحرارة [1] ، وما العالم المحسوس بموجود فعلًا

(١) راجع مذهب زرادشت الفارسي في هذا الكتاب .

وانما يتراءى لنا كحركات دائرية تتجمع في نقطة مركزية . وقد عقبه :

زينون الأليائي (٤٨٧ - ؟ ق . م)

قيل انه ولد في مدينة « اليـاء » من بلاد اليونان سنة (٤٨٧ ق . م) وجهلت سنة وفاته ، اما عقيدته فهي :

وحدة الكون

قال : ان المادة والزمن والحركة ، ما هي الا ظواهر ، والمادة اذا كانت موجودة فلا بد لها من ان تنحل الى ذرات ممتدة ، فالجزئيات هي امتداد ، وان لم تُردّ الى ذرات غير متمددة ، يستحيل وجود ذرات ، لان الذرة المتمددة قابلة للقسمة والتجزؤ دائماً ، وهذا ما يختص بالفضاء والمادة .

واما ما يختص بالزمن ، فالتعبير ليس هو ما كان ، ولا سيكون ، لاننا لو قلنا : ان هذا الشيء الحاضر هو كما كان ، فلا معنى للتغير ، وان قلنا انه هو ما سيكون نفسه استحال وجود التغير ، فالزمن اذن وحدة امتدادية .

واما الحركة ، وما يتعلق بها ، فلفهمها بالانتقال من نقطة الى اخرى ، يجب ان نسلم بادراك اللانهائي ، وهذا غير ممكن . وتقسيم الزمان الى اقسام واجزاء لا حد لهما يناقض الحركة ، ويثبت ان السهم المنطلق من قوسه يكون ساكناً في وقت ما وفي حيز معلوم ، ولما كان ذلك السهم محتلاً في كل آونة حيزاً معلوماً ، وجب ان يكون ساكناً ومتحركاً في آن واحد ، وهذا مُحال ، لانه غير ممكن ان يكون في المحل

الذي انطلق منه ، وفي المكان المنطلق اليه ساكناً ، فهو متحرك بانطلاقه وساكن في نفسه بحيز مسيره ، فهو اذن وحدة في حالتيه ، وهكذا نرى ان الكون وحدة تامة في ظواهر المادة والزمن والحركة . واما المذهب الفيثاغوري فهو مذهب فكري آخر مستمد من الفلسفة الهندية والمصرية معاً .

فيثاغورس (القرن السادس ق . م)

زعم غير واحد من مؤرخي تاريخ الفلسفة انه وُلد في جزيرة « ساموس » بالقرب من « افسس » (في القرن السادس ق . م) وقد رحل في صباه الى مصر وفينيقيا وبلاد الكلدان ، ولا ريب انه تأثر بمذاهب الاقوام الذين عايشهم مدة في رحلته ، وبالرجوع الى ديانة الاقوام المذكورة نتبين بوضوح تأثره بهم .

رأيه بالنفس

ذهب الى أن النفوس اجزاء من الشمس ، وبين هذه الاجزاء ارواح هي وسط بين الآلهة والناس اي لا هي آلهة تامة ولا هي ناس ، وهذه الارواح هي التي تسبب الاحلام والهواجس .

التقمص او التناسخ

قال : ان الارواح او النفوس لا تفنى ، بل هي تسير في أثير الجو حتى تصادف جسماً أيًّا كان فتدخل فيه ، فقد تخرج من جسد انسان وتحل في جسد حيوان ما .

ولما كان الامر كذلك فلا يجوز قطعاً ذبح الحيوانات ولا يجوز أكلها ، وعنده ، أن المادة لا يعتريها الفناء ، بل تتغير متشكلة باشكال مختلفة .

غاية الحياة

وغاية الحياة هو التشبه بالآلهة والخضوع لارادتها ، وما الحياة نفسها الا تجربة ، فلا يجوز بل لا يحق للانسان ان يتخلص منها منتحراً ، كما أنه لا يجوز للجندي ان يتخلى عن مركزه وهو في ساحة الحرب . والارواح هي التي تطلب التفلت من جسدها عندما تتمم غايتها ، وما الجسم الا مسكن موقت لها .

من وصاياه

على المرء ان يقدم عبادته للآلهة ، وان يحترم والديه احتراماً تاماً ، وعليه ان يرفق بجسده في طلب الثروة ، وان يكون وفيًّا رفيقاً محسناً نحو الآخرين .

وعليه ايضاً ، ان يفحص ضميره كل يوم ، ويواظب على الصلاة ، ويبتعد عن الموبقات ، ولا يأكل ما هو رجس او نجس . ومن واجب الشبان الخضوع الى الشيوخ محترمين الشرائع ، متفانين بخدمة الوطن ومحبته . واليك فيلسوفاً آخر هو :

امبيدوكل (٤٥٠ ـ ؟ ق . م)

وُلد في « اغريجنتا » في جزيرة صقليـــا ، وكان كاهناً يقدم القرابين والصلاة للآلهة ، وكان في الوقت نفسه شاعراً وفيلسوفاً وساحراً ، وقد زعم أنه يأمر الرياح فتطيعه والعواصف فتسكن .

الخلق

وقد ذهب في امر الخلق الى أن كل شيء في البدء كان مختلطاً وممتزجاً بالوحدة ، وهذه الوحدة هي هيولى الكون الازلية ،

وهي كروية الشكل ، مساوية لنفسهـــا ، ثابتة فسيحة تدعى « سفيروس » وجميع العناصر مستقرة فيه ، بقوة الحب ، وحدث ان تخلى الحب بقوة اضطرارية عن سيادته فنتج الانفصال وهو الذي اوجد الحركة والانقسام في « سفيروس » . وتفرقت العناصر التي كانت مختلطة ببعضها البعض الآخر ، فنشأ الهواء ، وبضغطه تولدت النار ، واما الماء واليابسة فقد انفصلتا بذلك الاختلاط بحركة ذاتية .

العبادة

ومن رأيه ان العبادة يجب ان تختص « بزفس » ورمزه النار ، و « بهيرا » ورمزها الهواء ، و « باركوس » ورمزه الارض ، و « بنستيس » ورمزه الماء المسبب عن كثرة بكائه .

رأيه في الكائنات والآلهة

قال : ان الكائنات تتكون وتتبدل باختلاط العناصر ببعضها البعض الآخر ، او بانفصالها عن بعضها البعض من دون ان ينعدم منها شيء ، لان المادة ، لا تفنى ولا تنعدم .

والآلهة عنده متعددة ، وادنى منها الملائكة ، وهم اصدقاء الناس عموماً ، والى جانب الملائكة شياطين هم اعداء الناس عموماً ، تزين لهم ارتكاب الموبقات وعمل الشر ، بينما الملائكة تدعو الى الصلاح والفضيلة وعمل الخير ، فعلى الناس ان ينصرفوا بأفكارهم الى الاصدقاء الصلحاء .

النفس

قال : ان النفس خالدة ، وهي طاهرة منذ البدء ، ولكن تدنست بحلولها في الجسد ، ولذلك يجب ان تتطهر متنقلة في اجساد الحيوانات والنبات وتكفّر عن ذنوبها واخيراً تعود الى

الآلهة لتعيش معها عيشة رغد وهناء ، فهو بذلك يقول بعقيدة التناسخ « Metempsycose » والحب عنده ، غاية كل موجود ، وهو – الحب – الذات الالهية ، والعقل هو المدبر لسائر الموجودات .

وننتقل الآن الى مذهب آخر هو مذهب الذرات والجواهر الفردة وزعيم هذه المدرسة هو « ديموقريطس » .

ديموقريطس (القرن الخامس ق . م)

قيل : انه ولد في بلد من بلاد اليونان ، ورحل رحلات متعددة الى بلاد مصر وآسيا وغيرها ، ولد سنة (٦٢٠ ق . م) وتوفي سنة (٥٤٠ ق . م) .

الابداع

قال : لا يمكن وجود حركة من دون فضاء ، او جواهر فردة ، والدليل على هذا الوجود ، ضغط الاجسام ، وامكان صب الماء في اناء مملوء رماداً بالمقدار نفسه الذي يمكن صبه تقريباً فيما لو كان الاناء فارغاً .

ووجود الفراغ او الفسحة ضروري في اجسام الحيوانات ، ولولا ذلك لما تمكن الحيوان من الغذاء ، ولكن الذرات هي العناصر الممتدة التي لا تقبل التجزئة ، ومنها تتشكل المادة وهي غير متناهية العدد ، ولها خواص جوهرية هي :

١ – الصلابة .
٢ – الشكل .
٣ – الحركة .

والاجسام ذرات تتحرك بنفسها فتتجمع او تتفرق وبها تشكلت الاجسام باشكال مختلفة ، وهذه الذرات متكاثرة وازلية الوجود .

تكوّن النفوس

قال : ان النفوس تتكون من ذرات روحية سريعة الحركة تشبه ما يشاهد في شعاع الشمس المنبثق من كوّة الى داخل غرفة مظلمة . اما المعرفة فمصدرها الحواس ، لان الاجسام تبعث أثيراً يتغلغل في اعضائنا ، فيسبب احساساتنا ، ويتسلط على المخ فيكوّن صور الاشياء ، وهذه الصور لا تدل على جواهر تلك الاشياء الظاهرة بل على التأثيرات المختلفة الناشئة عنها .

رأيه بالآلهة

يرى ان الآلهة كالناس تتركب من تلك الذرات الا انها منظمة بأحسن ترتيب ، ولذلك تعمر طويلًا اكثر مما يعمر الانسان ، وعلى هذه كلها تهيمن ضرورة تحكم السماء والارض ، والسعادة تطيعها طاعة عمياء .

وذهب هذا المذهب « لوسيب » واما « كيو » تلميذ « ديمقريطس » فكان يقول : لا اعرف شيئاً ولا ادري اني لا ادري . ويسير بنا البحث المتصل بعضه ببعض الى :

بروتغوراس (٤٨٥ ـ ٤١١ ق . م)

ولد في مدينة « ابدير » من اعمال « تراكيا » في آسيا الصغرى ، ودوّن تعاليمه « افلاطون » في محاورتي « بروتغوراس » و « ثيثيس » واشار اليه « ارسطو » في مؤلفه ما بعد الطبيعة .

رأيه في الانسان

قال : ان الانسان هو مقياس جميع الاشياء ، والحواس دليل كل شيء واصل المعارف البشرية ، كما ان الاحساس لا حد

لتغيره ، وكل انسان يحكم بما يعرفه وحكمه حق .

وبما أن احكام الناس تختلف بالشيء الواحد ، مما يراه هذا صواباً يراه غيره خطأً ، وآخر يشك في صحته او في خطائه ، وعلى هذا اقول : إنّ كل واحد مخطىء ومصيب في آن واحد ، لان الحقيقة تابعة للشعور الوقتي الذي نحس به ، وما صدق الشيء وكذبه الا بما ينطوي عليه الانسان من صدق او كذب .

الخير الخلقي

ويرى أن الخير الخلقي هو كل ما يسرّ وما يشعر بالطمأنينة والراحة ؛ والعدل والظلم ، والقداسة والنجاسة ، ليس لها تعريف خاص او ركن تعتمد عليه لانها تتبدل بحسب الزمان والمكان . ويأتي بعده :

جورجياس (٤٨٥ ـ ٣٨٠ ق . م)

ولد هذا الفيلسوف في « ليونتسيوم » من اعمال جزيرة صقليا ومن ارائه في :

الموجود

لا يوجد شيء ، وان وجد فلا تمكن معرفته ، وان وجد شيء وامكن معرفته ، فلا نقدر أن نعرّف به الآخرين . والدليل على ذلك هو : اذا كان للموجود وجود ، فيكون ابدياً غير متناه ، والمتناهي لا يمكن ان يحتوي على شيء ، فلا المحتوي هو ذات المحتوي عليه ، ولا هو متضمن في شيء آخر ، لانه نهائي ، فليس هو شيء ما وعلى هذا فلا يكون له وجود .

وإن امكن معرفة شيء فهو والعقل واحد ، والعقل لا يصير ابيض لمجرد معرفته اللون الابيض ، وحواسنا لا تدرك الا ما يتعلق بها ، فالبصر يدرك الالوان ، والسمع يدرك الاصوات ، والعين تدرك المرئيات الى غير ذلك . وسنرى أن سقراط وافلاطون وارسطو قد نقضوا هذه المغالطات . بما سنعرض اليه من اعتقادهم وآرائهم .

رأيه في الآلهة

قال : ان الآلهة من مخترعات افكارنا ، والفضيلة تماشي الزمن ، وتمشي في ركاب ابنائه . وما كان فضيلة عند قوم قد يكون رذيلة عند آخرين وبالعكس ، واما المحبة فواحدة لا تبدل فيها ولا تغير .

وهنا يصل بنا المطاف الى حلقة جديدة من التفكير وزعيمها :

سقراط (٤٧٠ ـ ٤٠٠ ق . م)

ولد في « أثينا » سنة (٤٧٠ ق . م وتوفي سنة ٤٠٠ ق . م) وهو اول مقرّ بالوحدة الازلية ، ومات مسموماً بامر مجلس الشيوخ لانه افسد عقيدة الأثينيين ، وخالف عقيدة اهل زمنه ، وهو لم يدوّن شيئاً ولكن تلميذه افلاطون حفظ لنا عقيدته .

رأيه بالله

قال : يوجد اله ازلي واحد ، مالىء الكون ، وهو في العالم كالنفس البشرية المتغلغلة في الجسم البشري .

ووجوده ثابت ، بدليل أن لكل معلول علة ، ولكل فعل فاعلاً ، ولكل فاعل غاية .

والسبب الذي ابدع الانسان سبب عاقل ، وكل شيء في العالم أبدعَ على احسن تقويم ، وهو عمل قوة مدركة تمام الادراك ، وكاملة العقل ، وهنالك عناية مثلى تنظم الكون ، طبقاً لشرع العقل ، فتخضع الخاص للعام ، وتتعاون الاجزاء في العمل الصالح لمصلحة المجموع .

النفس

قال : ان النفس جزء من ذلك العقل الكامل ، كما أن الجسم جزء من المادة ، والنفس خالدة ، لانها صادرة من الله ، والصادر من الخالد خالد بخلوده الازلي . وتعاليم سقراط كلها مشروحة بقلم تلميذه افلاطون وهو الذي يبين لنا مذهب استاذه على اكمل وجه ؛ واكثر تعاليم « سقراط » معقودة بقلم افلاطون ، وقد اتهم بانه تحدث باشياء لم يقل بها سقراط .

افلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق . م)

اختلف في مكان مولده فمنهم من قال : انه ولد في « اثينا » ومنهم من قال : انه ولد في « اجينا » سنة ٤٢٧ ق . م وتوفي سنة ٣٤٧ ق . م .

عقيدته بالله

قال : ان الله مثال الخير ، وهو حي حقيقي مدرَك ، وله ثلاثة مظاهر هي :

١ ـ الخير او الواحد ، مصدر الصلاح والحقيقة وغاية كل شيء .

٢ ـ العقل الاسمى « Logos » مركز المُثُل حيث تبقى فيه الى الابد في العالم المثالي ، وما العالم الحسي الا صورة غير كاملة له .

٣ – الله روح هذا العـــالم ، وهو الفاعل ، وصانع المادة ومحركها طبقاً للمثل .

واثبت هذا كله ، انه موجود بدليل المحرك والعِلل الغائيّة[١].

المادة في رأيه

ذهب الى أن المادة ازلية الوجود ، وكان كل شيء فيهـــا مضطرباً مختلطاً منذ البدء ، فرأى صلاح الله ، ان يكون كل شيء من ذلك على شبهه ومثاله ، فكوّن العالم طبقاً للمُثُل التي اختلطت على نوع المادة العادمة الشكل ، غير أن هذه المادة لم تكن كاملة ، فبقيت على شيء من نقص العالم المادي ، فيها ميول الخلق الحرّ ، الشرير او الصالح .

مَن هو الله ؟

عنده ، أن الله هو الخير والعقل والروح ، خلق الكائنات بأسرها بصلاحه ، لان من كان صالحاً لا يعمل الا صلاحاً . فقد نظم بعنايته الوجود طبقاً لقوانين تشمله فلا تتعداه الى شيء آخر .

خلق العالم

ذهب بأمر خلق العالم الى ما يأتي ، قال : ان عنصراً ازلياً كان ملازماً لله ، وهذا العنصر هو المادة ، فنشأ الكون من مشاركة المادة للمثل بنوع من الانكسار ، كما تتولد الالوان من انكسار الضوء .

والنفس خالدة ، لا تأتي هذا العالم الا لتكفر عن ذنب

(١) الغائية : ان كل علة تسعى الى غاية ما لا تعدوها الى غيرها مثال ذلك النحات الذي ينحت الحجر فيجعل منه صورة والغاية منه الربح او الشهرة .

اقترفته في عالم المثل ، ثم تعود الى مثلها طاهرة لا عيب فيها ولا دنس . ويأتي بعد هذا الفيلسوف ذي الجبهة العريضة :

ارسطو (٣٨٤ – ٣٢٢ ق . م)

ولد هذا المفكر الفيلسوف في « استاغير » من اعمال مكدونيا على خليج « ستريمون » بالقرب من جبل « آثوس » الجبل المقدس .

الموجود كما هو موجود

قال : ان الموجودات علم بالموجود كما هو موجود ، والموجود الذي ترشدنا اليه التجربة ، قابل للتغير اي التحول من القوة الى الفعل الذي به تصير الحركة ، وهذه الحركة تدعو الى محرّك . والحركة الطبيعية ابدية ، ويجب ان يكون لكل متحرك محرّك يتحرك بمحرّك آخر ينتهي الى محرّك لا يتحرك بآخر ، فهو جوهر وفعل معاً . ومصدر الحركة هو :

الله

فالله هو مصدر الحركة الابدية التي تتحرك بعلة غائية بطريق الجذب نحو العقل الاعظم والشوق اليه ، والمثل في ذلك مثل الخير الذي يستميلنا ويستهوينا نحو الشيء الجميل .

وعلى ما تقدم يرى أن الارواح وعالم الاجسام تنجذب دوماً نحو الله بدافع ذاتي من نفسها ، لان الله جميل كلي الجمال والبهاء .

والله جوهر روحاني يتجلى فيه الفعل والحياة بأتم مظاهرهما ، ومتمتع دائماً بالسعادة الكاملة ، ولكونه منهمك بمشاهدة نفسه لا يلتفت الى العالم .

وميزة « ارسطو » انه عالم لا يشوب ذهنه شيء من الصوفية الافلاطونية ، وهو اول من فصل الادب من العلم لما ألف كتابه « التاريخ الطبيعي » . وجملة آرائه في النظر العلمي هي :

١ – المادة دائمة غير مخلوقة فهي اذن لا تفنى .

٢ – اصل المادة العناصر الاربعة : الماء ، الهواء ، التراب والنار .

٣ – ان الارض كرة وهي مركز الكون .

٤ – ان النجوم والكواكب تدور حول الارض .

٥ – الكون محدود [1] .

وآراؤه هذه كانت تعارض العقائد الدينية الاغريقية ، وكان يصرّح بأن الآلهة لا تستطيع ان تخالف النواميس الطبيعية .
على اننا نرى الروح الافلاطونية قويت في فلسفة « افلوطين » الاسكندري .

افلوطين Plotin

نثبت فلسفة هذا الفيلسوف لانه هو الذي احيا فلسفة « افلاطون » وكانت مبدأً للنظر الفلسفي فيما بعد والسنّة التي اتبعها الفلاسفة بعده .

ولد هذا الفيلسوف في « ليكوبوليس » بالوجه القبلي من مصر نحو بدء القرن الثالث للمسيح ومات في « روما » سنة ٢٧٠ م ، وسافر بصحبة الامبراطور « غرديان » في تجريدة حربية ضد بلاد فارس .

---

(١) ان العلم الحديث وعلماء الفلك ينفون هذه النظرية ، كما انهم ينفون الكثير من آراء الفيلسوف ولاسيا مسألة العناصر ودوران النجوم حول الارض ومحدودية الكون ، وان الارض مركز الكون .

أخذ العلم عن « أمونيوس سكاس » الذي تربى في احضان المسيحية ثم جحدها ، ولما سمع « افلوطين » تعاليمه صاح : « هذا هو الرجل الذي ابحث عنه » وبعد ذلك سافر الى بلاد « فارس » « والهند » ليقف على المذاهب الشرقية . وفي الاربعين من عمره جاء مدينة « روما » واسس مدرسة وعلم فيها نحو عشرين سنة . ومن مؤلفاته التي نقلها تلميذه « بورفيروس او فرفوريوس » في ستة مجلدات ، كل مجلد يحتوي على تسعة كتب دعاها « التاسوع » « Ennéades » وفيها كثير من الفلسفة الفارسية والهندية .

مذهبه في ما وراء الطبيعة

في البدء كان « الواحد » ومنه صدر كل شيء بطريق الانبثاق ، وكل شيء اليه يعود بطريق الرجوع .

فالواحد هو كل الاشياء ، وليس هو احد تلك الاشياء ، وليس الغرض من قوله : « كل الاشياء » مجموعها بل كمال كل شيء ، فالواحد مبدؤه ويمتزج بكمال الباقي .

وتحديد الواحد حصر له ، فليس هو احد الاشياء التي تصدر منه ، ولا يمكن وصفه بوصف خاص ، فهو ليس الموجود ولا الجوهر ولا الحياة انما هو اسمى من كل ذلك ، ولا يمكن تشكيله بشكل ما ، فهو فوق كل تعريف ، فما هو بفكر ولا بارادة ، لان الفكر يستلزم شيئين : مفكِّر ومفكَّر فيه .

والارادة تستدعي حالة غير الحالة التي هي فيها ، وذلك امر ثنائي والله واحد ، ولا نعرف سوى أنه واجب الوجود ، تام الكمال ، لا يحتاج لشيء خارجي ، بل يفيض خيراً وينتشر ، فتتولد عنه جميع الكائنات التي تختلف كمالاتها بحسب قربها وبعدها من ذلك الفيض الالهي . واول نتاج لهذا التوليد هو

... » اكمل شيء بعد الواحد ، وهذا الابن « Pnevma »
...تمد من الآب « Pater » الذي انبثق منه كل كمال ،
ينقص عنه الا قليلاً جداً .

وللعقل كذلك قوة انتاج ، ولكن بقوة اضعف من قوة ابيه ، ومن العقل « Nous » انبثقت الروح الكلية وهي اقل كمالاً منه .

الاقانيم الثلاثة الاسكندرية

ان هذه الاقانيم الثلاثة الاسكندرية « Néo Platonisme » المتحدة ببعضها ، وهي المتحدة ببعضها ، والمتغيرة عن بعضها في الوقت نفسه .

الروح الكلية

فالروح الكلية هي كلمة العقل « Nous » والعقل كلمة الواحد ، والثلاثة يحبون بعضهم بعضاً .

والنفس تحوي العالم الحسي بالقوة ، وعنها تصدر الموجودات ، ذوات الاجسام ، فهذا هو الانتقال اللانهائي الى النهائي ، فالله والجسم على طرفي درجات الكمال : الله واحد والجسم متعدد .

الا ان الجسم عليه طابع الهي ، لانه مشكل بأشكال الله المنعكسة عليه ، والكائنات ذوات الاجسام متركبة من مادة ومن صورة .

فالصورة ، تتضمن حقيقة الموجودات ، والمادة هي الشيء التي تكوّنت منه الاجسام .

العودة الى الله

نرى ان حركة التسلسل عنده تقابل حركة اخرى رجعية ،

ففي كل شيء صدور من « الواحد » « Unity » وهو ميل قد يكون مبهماً او مدركاً بنفسه ، انه يعود الى ذلك « الواحد » وهذا الرجوع يكون الى مصدره الالهي ، ولا يحصل الا عن معرفة ، لان لكل موجود كمالاً ، وبهاتين الحركتين : « الصدور والنكوص او بمعنى اوضح ، الانبثاق والعودة » يتجدد العالم الحسي على التوالي ، فبحركتي الطرد والعكس تصدر الاشيـــاء ، من النقص الى الكمال ، فهي من الله والى الله تعود .

والاقانيم الالهية الثلاثة فشأنها هذا :

١ — النفس المنبثقة من العقل تتجه دائماً نحوه .

٢ — العقل الصادر من الله يتحول نظره اليه ، وقد قال في « تاسوعياته » « Ennéades » الرابع ما يأتي :

« تصوّر نقطة مركزية ، تحيط بها دائرة مضيئة ، ويطوّق هذه الدائرة دائرة اخرى مضيئة ، وليكن نورها مشتقاً من النور الاول ، ثم يوجد خارجاً عن هاتين الدائرتين دائرة اخرى تبعد عنهما ، ولكنها ليست مضيئة بنفسها بل تستنير بضوء آخر منها » .

فمن قوله هذا نستنتج ان الكمال اصل الوجود ، وكل موجود يميل الى الكمال ، فالعالم وُجد للخير ، اما الشر الذي نلاحظه في الكون فمصيره الى الزوال شيئاً فشيئاً ، طبقاً لسنّة الترقي من الناقص الى التام .

ولما كانت النفوس في مركز متوسط بين « العقل » وبين « الاجسام » فهي إما ان تحوّل نحو « المثُل » فتعيش عيشة روحية ، او تظل حائرة مترددة تتجاذبها الروح والمادة . او ان تتحوّل شطر المادة ، فتحل في الاجسام ، ولذلك تكون النفوس على ثلاثة انواع :

العقل « Nous » اكمل شيء بعد الواحد ، وهذا الابن « Pnevma » الجميل يستمد من الآب « Pater » الذي انبثق منه كل كمال ، ولا ينقص عنه الا قليلاً جداً .

وللعقل كذلك قوة انتاج ، ولكن بقوة اضعف من قوة ابيه ، ومن العقل « Nous » انبثقت الروح الكلية وهي اقل كمالاً منه .

الاقانيم الثلاثة الاسكندرية

ان هذه الاقانيم الثلاثة الاسكندرية « Néo Platonisme » المتحدة ببعضها ، وهي المتحدة ببعضها ، والمتغيرة عن بعضها في الوقت نفسه .

الروح الكلية

فالروح الكلية هي كلمة العقل « Nous » والعقل كلمة الواحد ، والثلاثة يحبون بعضهم بعضاً .

والنفس تحوي العالم الحسي بالقوة ، وعنها تصدر الموجودات ، ذوات الاجسام ، فهذا هو الانتقال اللانهائي الى النهائي ، فالله والجسم على طرفي درجات الكمال : الله واحد والجسم متعدد .

الا ان الجسم عليه طابع الهي ، لانه مشكل بأشكال الله المنعكسة عليه ، والكائنات ذوات الاجسام متركبة من مادة ومن صورة .

فالصورة ، تتضمن حقيقة الموجودات ، والمادة هي الشيء التي تكوّنت منه الاجسام .

العودة الى الله

نرى ان حركة التسلسل عنده تقابل حركة اخرى رجعية ،

ففي كل شيء صدور من « الواحد » « Unity » وهو ميل قد يكون مبهماً او مدركاً بنفسه ، انه يعود الى ذلك « الواحد » وهذا الرجوع يكون الى مصدره الالهي ، ولا يحصل الا عن معرفة ، لان لكل موجود كمالاً ، وبهاتين الحركتين : « الصدور والنكوص او بمعنى اوضح ، الانبثاق والعودة » يتجدد العالم الحسي على التوالي ، فبحركتي الطرد والعكس تصدر الاشيـــاء ، من النقص الى الكمال ، فهي من الله والى الله تعود .

والاقانيم الالهية الثلاثة فشأنها هذا :

١ — النفس المنبثقة من العقل تتجه دائماً نحوه .

٢ — العقل الصادر من الله يتحول نظره اليه ، وقد قال في « تاسوعياته » « Ennéades » الرابع ما يأتي :

« تصوّر نقطة مركزية ، تحيط بها دائرة مضيئة ، ويطوّق هذه الدائرة دائرة اخرى مضيئة ، وليكن نورها مشتقاً من النور الاول ، ثم يوجد خارجاً عن هاتين الدائرتين دائرة اخرى تبعد عنها ، ولكنها ليست مضيئة بنفسها بل تستنير بضوء آخر منها » .

فمن قوله هذا نستنتج ان الكمال اصل الوجود ، وكل موجود يميل الى الكمال ، فالعالم وُجد للخير ، اما الشر الذي نلاحظه في الكون فمصيره الى الزوال شيئاً فشيئاً ، طبقاً لسنّة الترقي من الناقص الى التام .

ولما كانت النفوس في مركز متوسط بين « العقل » وبين « الاجسام » فهي إما ان تحوّل نحو « المُثُل » فتعيش عيشة روحية ، او تظل حائرة مترددة تتجاذبها الروح والمادة . او ان تتحوّل شطر المادة ، فتحل في الاجسام ، ولذلك تكون النفوس على ثلاثة انواع :

١ – يتألف من النفوس السماوية وهي تعيش « للعقل ولله » فتظل على الدوام متمتعة بالسعادة الابدية بمشاهدة « المثُل » والله الواحد .

٢ – النفوس المكوّنة للملائكة والشياطين اي المنجذبة الى الخير والتي انجذبت الى الشر .

٣ – النفوس البشرية التي كانت في البدء سماوية ، ثم سقطت في الاجسام عقاباً لها على كبريائها .

وهذا التجسد عقاب وقتي ، فاذا نهضت النفس من كبوتها واتجهت بأفعالها شطر « الخير » امكنها ان تحظى بالمشاهدة الالهية ، فغاية الحياة اذن ، السعي للعودة الى هذا التمتع بواسطة تطهير النفس الساقطة ، ولذلك يجب ان تجرد ذاتها من الشهوات البدنية والميول الحسية بممارسة الفضائل الاربع :

١ – الاعتدال ، العفة .

٢ – العدالة .

٣ – الشجاعة .

٤ – الحكمة .

وعلى الجملة فهو يطلب قائلاً : « اغمض عيني جسمك وافتح عيني روحك تشاهد الجمال الازلي وتحظَ بالخير المطلق بواسطة الانخطاف الروحي بحيث تتحد النفس بالله الواحد الاحد[١] . »

(١) ملخص عن : Brehier ; La Philosophie de Plotine 1922

خاتمة

رأينا تطور العقل الانساني ، الذي رأى بعيني رأسه كوناً مرتباً يسير على نظام واحد ، لا يتبدل ولا يتغير في نظره ، ولا يعدوه الى نظام آخر .

رأى السماء مرصعة بالدراري الغوالي ليلاً ، فالقمر يبعث انواراً تحكي زبد البحر ابيض مشوباً بسُمرة ، فقال : إن وراء هذا مكوّناً قديراً ؛ ونظر الشمس تضيء نهاراً ، والارض تتنفس عن فصولها ، فتخرج لكل فصل مواتها زهراً وخضاراً واثماراً ، فزاد ايمـــانه يقيناً ، وجزم أن وراء هذا كله خالقاً مبدعاً مدبراً ، وما زال الزمن يكر وفسحة الابد تزيده تفكيراً ، فتكشفت له الحقائق الا قليلاً ، فأصابه قبس من نور اضاء امامه سُبُل ما استوعر ، فكانت الفلسفة وكان البحث وكان الشوق الى معرفة ما وراء الطبيعة ، ولما يزل الفكر البشري آخذاً بالبحث والتأمل ، فرأى ان الحب والفضيلة والخير غاية السعادة الارضية ، فراح يشرح ويبين ويعلل واذا هي كلها آية شكر تجري على لسانه عقداً منظماً ، وآيات بينات تعلن الحب وتقرّ صادعة بقدرة متفرّد واحد أحد ، ازلي صمد ، به تليق العبـــادة ومنه مبدأ كل بحث .

وهنالك فريق وقف حائراً مشككاً ولسان حاله يقول : لا ادري ، وآخر التفت الى المادة ورأى فيها كل شيء فراح يستنطقها ويبحث اجزاءها ، والزمن يسير والفكر الانساني في شغل شاغل ، والحقيقة وراء حجب العصور ، لا تدرك الا بالايمان والتسليم ، وقديماً قيل : « ان فلسفة هذا العالم جهالة عند الله » .

المحتويات

صفحة

مقدمة ٥

المصادر ٧

كيف وجدت الحياة ونشأت العبادة ٩

ما هي الحياة وكيف وجدت؟ ١٠ من هو الانسان؟ ١٣ منشأ العبادة ١٥

ديانة المصريين القدماء ١٨

عبادتهم ١٨ من تعاليمهم ٢٠ آلهتهم ٢٠ آراؤهم فيما بعد الموت ٢٣
اعمال الكهان ٢٤

الديانة الكلدانية والاشورية والبابلية ٢٦

خلقة العالم ٢٧ عقيدتهم ٢٧ الحياة الاخرى ٢٨ دستور حمورابي ٢٨
ذكر الطوفان ٢٩ بناء الهياكل ٣٠ الكهان ٣١ بعض قصصهم الديني ٣١
« اتانا » الراعي ٣١ « ادابة » الصياد ٣٢ السيطرة الدينية ٣٢

ديانة الفرس القدماء ٣٤

زرادشت ٣٤ فما هي هذه الثنائية في الوجود عنده؟ ٣٥ الهياكل والاعياد ٣٦
شريعة الزواج ٣٧ الموت ٣٨ اسطورة ٣٨ عبادة الماديين ٣٩

ديانة الفينيقيين ٤١

الثالوث الفينيقي ٤٤ ذبائحهم ٤٥ اعتقادهم بخلود النفس ٤٥ كهانهم ٤٦

صفحة

ديانة العرب القدماء ٤٩

الذبائح والقرابين ٥٠ الزواج ٥١ سدانة الكعبة ٥٢ الحج ٥٣

البرهمية او الهندوس ٥٤

نشأة الوجود ٥٤ نشوء الطوائف ٥٤ الثالوث الهندي ٥٥ الفيدا ٥٥
عقيدة التناسخ ٥٦ درجات الناس ٥٦ الفضائل الدينية ٥٦ غاية النفس ٥٧
الرتب في المذهب البرهمي ٥٨ الحكيم الهندي « كريشنا » ٥٨ تقشف
البراهمه ٥٩ الحج ٦٠ الاعياد ٦٠

اللاما ٦٢

مقر اللاما وكهانه ٦٢ اعتقادهم ٦٢ الحج ٦٣ المغفرة ٦٣ السلطان
السياسي ٦٣ خليفة اللاما ؛ التوحيد ؛ الخلود والكهان ٦٤ الزواج ٦٥

الكونفوشيوسية ٦٦

تعاليم كونفوشيوس ٦٧ اهم الفضائل ٦٧ العقوبات الخمس ٦٩

ديانة اليونان القدماء ٧١

معتقدهم ٧١ المجلس الاولمبي ٧١ الالاهات الست ٧٢ موحى دلفي ٧٣
الالعاب الاولمبية ٧٣ الاسرار وهاتفو الغيب ٧٤ حكاية القدر ٧٤

ديانة الرومان ٧٦

الجمعيات المقدسة ٧٦

الديانة الشنتوية ٧٩

العبادة الروحية ٧٩ من معبوداتهم ٨٩ اركان الدين ٨١

صفحة

المذاهب الفكرية عند الاغريق ٨٢

طاليس المليطي ٨٢ مذهبه ٨٢
انكسيمندر ٨٢ مذهبه في الخلق ٨٣
انكسمين ٨٣
هرقليطس ٨٤ مذهبه ٨٤ رأيه ٨٤
أنكسغوراس ٨٤ الخلق ٨٥
كزينوفان ٨٥ الخلق في رأيه ٨٥ اعتقاده ٨٦
برمنيدس ٨٦ عقيدته ٨٦ خلق العالم ٨٦
زينون الاليائي ٨٧ وحدة الكون ٨٧
فيثاغورس ٨٨ رأيه بالنفس ٨٨ التقمص او التناسخ ٨٨ غاية الحياة ٨٩
من وصاياه ٨٩
امبيدوكل ٨٩ الخلق ٨٩ العبادة ٩٠ رأيه في الكائنات والآلهة ٩٠
النفس ٩٠
ديموقريطس ٩١ الابداع ٩١ تكون النفوس ٩٢ رأيه بالآلهة ٩٢
بروتغوراس ٩٢ رأيه في الانسان ٩٢ الخير الخلقي ٩٣
جورجياس ٩٣ الموجود ٩٣ رأيه في الآلهة ٩٤
سقراط ٩٤ رأيه بالله ٩٤ النفس ٩٥
افلاطون ٩٥ عقيدته بالله ٩٥ المادة في رأيه ٩٦ من هو الله ؟ ٩٦
خلق العالم ٩٦
اوسطو ٩٧ الموجود كما هو موجود ٩٧ الله ٩٧
افلوطين ٩٨ مذهبه في ما وراء الطبيعة ٩٩ الاقانيم الثلاثة الاسكندرية ١٠٠
الروح الكلية ١٠٠ العودة الى الله ١٠٠

خاتمة ١٠٣

انجزت المطبعة المخلصية
دير المخلص – (صيدا)
طبع هذا الكتاب
في ١٠ شباط سنة ١٩٦٠